كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 80 الأربعاء 6 نيسان / أبريل 2005

واسيني الأعرج

كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد

رسوم يحيى الشيخ





الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

البيان الختامي لأعمال المؤتمر الثاني لمشروع "كتاب في جريدة"

برعاية معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مؤسسة MBI Foundation ومعالي الأستاذ فاروق حسني وزير الثقافة في جمهورية مصر العربية عقدت للفترة من 21 / 19 تشرين الثاني (نوفمبر) 2004 أعمال المؤتمر الثاني لمشروع "كتاب في جريدة" وذلك في فندق Four Seasons (الفصول الأربعة) في شرم الشيخ بجمهورية مصر العربية.

وحضر الاجتماع رؤساء تحرير وممثلو الصحف العربية المنضوية في مشروع "كتاب في جريدة". وتجلّت خلال المؤتمر طموحات واضحة نحو الارتقاء بأداء المشروع ومستواه خاصة بعد أن عبّر راعي المشروع معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر عن نيته في السعي إلى زيادة توزيع النسخ المطبوعة للوصول إلى عشرة ملايين نسخة شهرياً من الإصدارات المختارة وذلك بحلول العام 2007.

وأكّد المجتمعون أن ثمة واقعاً جديداً جعل من "كتاب في جريدة" أكثر من مجرد إصدار كتابي دوري وإيصاله للقارئ العربي مجاناً، مما حتم عليه أن يشهد اتساعاً في آفاق نشاطاته، وامتداداً في إسهاماته من أجل تعميم المعرفة بوصفها فاعلية أساسية في تنشيط إسهام النخبة والجماعة على حد سواء في التفاعل مع التطورات الهائلة، والاستجابة للتحديات الراهنة التي تفرضها معطيات الوضع العالمي.

وفي مدى هذا الاتساع لآفاق المشروع أقر المؤتمرون مبادرة راعي المؤتمر بتخصيص جائزة سنوية مادية ومعنوية بقيمة عشرة آلاف دولار لكل حقل وينشر الكتاب ضمن منشورات "كتاب في جريدة" وتشمل الحقول في مجالات الطفولة والمرأة والتنمية البشرية في الوطن العربي، على أن يجري تشكيل لجنة خاصة بالجائزة تتولى الإعداد لمشروع متكامل حول طبيعتها وشروطها وآليات منحها.

كما أكد المشاركون في المؤتمر ضرورة إنشاء موقع إلكتروني على الشبكة العالمية، يتضمن جميع الإصدارات الشهرية، إضافة إلى إصدار عدد سنوي في قرص مدمج لتسهيل عمل الباحثين وذوي الاختصاصات وتهيئة مادة اختزالية وأرشيفية أساسية في هذا المجال، على أن يجري العمل في السياق نفسه على التواصل مع منظمة اليونسكو لتفعيل المشروع الخاص بتدوين التراث الشفاهي والمكتوب في أقراص مدمجة خاصة وتوزيعه مجاناً مع الصحف الشريكة.

وفي إطار البرنامج القادم للعام 2005 ناقش المجتمعون وبصورة مستفيضة خلال جلستين صيغاً متعددة حول كيفية إقرار الإصدارات الشهرية وسط خيارات كثيرة خضعت للمناقشة المطولة في مجالات الأدب بشقيه التراثي والمعاصر والدراسات الفكرية والاجتماعية والترجمة ووجدوا أن هناك ضرورة لتوسيع مجالات النشر وحقوله المعرفية لتشمل جوانب من هذه المعارف وأهمية إصدار موجز مناسب عنها.

وانتهى المجتمعون إلى اعتماد البرنامج السنوي للعام 2005 باختيار خمسة عشر إصداراً جرى اختيارها بواقع عدد واحد كل شهر على أن ترجأ الإصدارات المتبقية لبرنامج العام 2006، من أجل إتاحة هامش لتلافي أي تعثر في تعذر إصدار أحد هذه الأعداد لأسباب ما.

وجاء برنامج الإصدارات الشهرية على النحو التالي:

1 - مختارات من أشعار مظفر النواب
2 - صيادون في شارع ضيق لجبرا أبراهيم جبرا
3 - مختارات قصصية لجمال أبو حمدان
4 - قصائد من أدب الطفل لسليمان العيسى
5 - عروبة القدس في عيون الرحالة العرب والأجانب
6 - رواية الفردوس اليباب لليلى الجهني
7 - مختارات من الشعر الشنقيطي
8 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي
9 - مختارات من الشعر السوداني
10 - نحو رؤية إنمائية للعالم العربي د. مهدي الحافظ
11 - مختارات من الكتابات الفكرية لأنور عبدالملك
12 - مختارات قصصية لواسيني الأعرج
13 - رواية الأرض يا سلمى لـ محمد أحمد عبدالولي
14 - مختارات من الكتابات الفكرية لقسطنطين زريق
15 - مختارات من إدوارد سعيد.

وفي ختام مؤتمرهم وجّه المجتمعون برقية إلى الشيخ محمد بن عيسى الجابر أثنوا فيها على رعايته الكريمة لمشروع «كتاب في جريدة» واستضافة أعمال مؤتمره الثاني.

إتفاقية التعاون بين منظمة اليونسكو ومؤسسة محمد بن عيسى الجابر



على اليمين: السيد كويشيرو ماتسورا، مدير عام منظمة اليونسكو
على اليسار: الشيخ محمد بن عيسى الجابر، رئيس مؤسسة MBI FOUNDATION

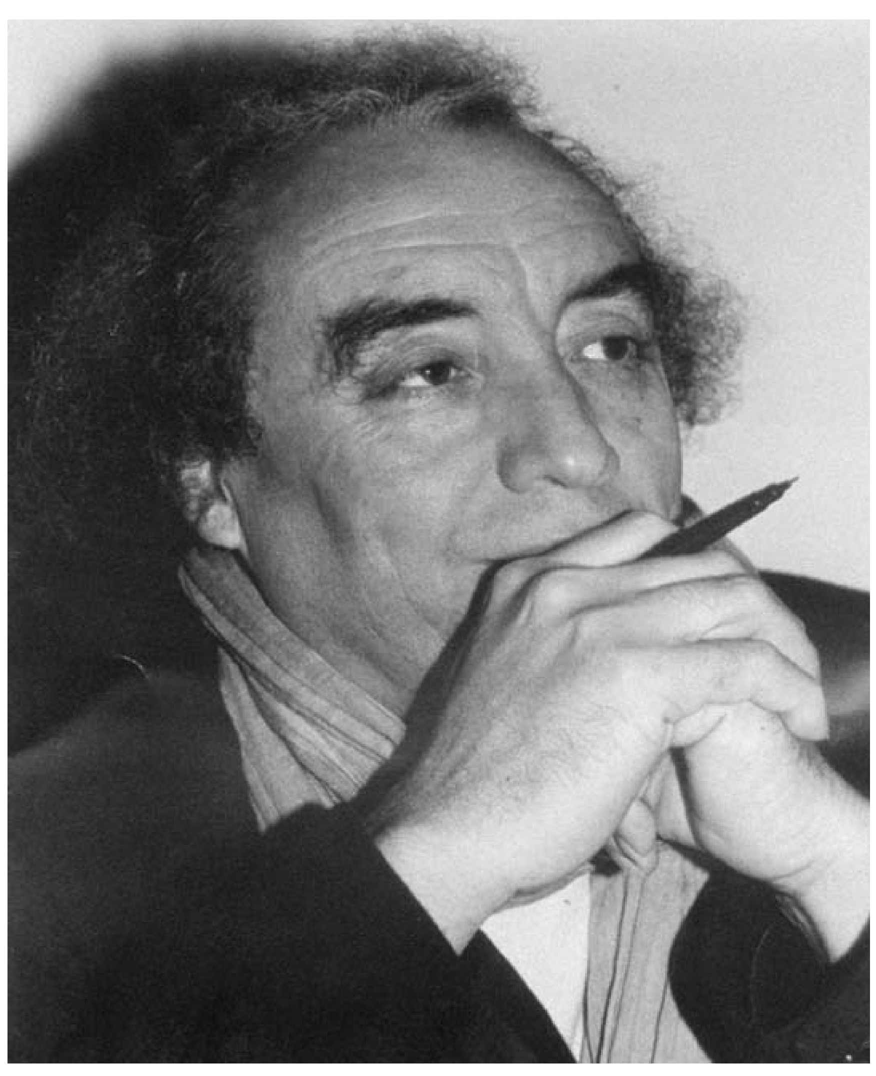
بعد النجاح الكبير الذي حققه «كتاب في جريدة» منذ انطلاقته الأولى طيلة سبع سنوات، بحيث أصبح العمل الثقافي الموحد الذي لمّ الشمل العربي بمشاركة كبريات الصحف اليومية ومساهمة كوكبة رائدة من المبدعين والمفكرين العرب،

وانطلاقاً من إيماننا بأن الإبداع الفكري والأدبي والتشكيلي كأرقى أشكال التعبير الإنساني هي الأرضية الأوسع والأعمق بين مختلف طوائف وتكوينات المجتمع العربي،

وإيماناً برسالة اليونسكو في نشر المعرفة والتشجيع على القراءة وترسيخ قِيَم الحوار والسلام والمحبة بين الناس والشعوب في مرحلة تعاني فيها أمتنا من أزمة حادة تتمثل في القطيعة التي تتعمق يوماً بعد يوم بين عموم الناس وبين ينابيع الفكر والإبداع كما تجمع على ذلك كل الإحصاءات والدراسات والمصادر العربية المختصة عربياً وعالمياً،

قامت مؤسسة MBI FOUNDATION برئاسة معالي الشيخ محمد بن عيسى الجابر بتوقيع اتفاق شامل مع منظمة اليونسكو ممثلة بمديرها العام السيد كويشيرو ماتسورا في باريس يقضي بدعم العديد من المشاريع الثقافية العربية في المنظمة ومن بينها إعادة إطلاق «كتاب في جريدة» كمؤسسة ثقافية مستقلة، لخمسة أعوام، من أجل المساهمة في بناء غد عربيّ أفضل.

واسيني الأعرج



صدر للكاتب/الروايات

البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل). دمشق/ الجزائر ١٩٨٠

وقع الأحذية الخشنة. بيروت١٩٨١

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠٢ Libre Poche)

ما تبقّى من سيرة لخضر حمروش. دمشق ١٩٨٢

نوار اللوز. بيروت ١٩٨٣ – باريس للترجمة الفرنسية ٢٠٠١

مصرع أحلام مريم الوديعة. بيروت ١٩٨٤

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ Libre Poche)

ضمير الغائب. دمشق ١٩٩٠

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ جىڤم ذُكوم)

الليلة السابعة بعد الألف: رمل الماية. دمشق/الجزائر ١٩٩٣

الليلة السابعة بعد الألف: المخطوطة الشرقية. دمشق– ٢٠٠٢

سيدة المقام. دار الجمل– ألمانيا/الجزائر ١٩٩٥

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ Libre Poche)

حارسة الظلال. الطبعة الفرنسية. ١٩٩٦– الطبعة العربية ١٩٩٩

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ Libre Poche)

ذاكرة الماء. دار الجمل– ألمانيا ١٩٩٧

(سلسلة الجيب: الفضاء الحر–٢٠٠١ Libre Poche)

مرايا الضّرير. باريس للطبعة الفرنسية. ١٩٩٨

شرفات بحر الشمال. دار الآداب. بيروت ٢٠٠١

كتاب الأمير
مسالك أبواب الحديد

واسيني الأعرج. مواليد ١٩٥٤ بضيعة سيدي بوجنان، ولاية تلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي. يكتب باللغتين، العربية والفرنسية.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني الروائية إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائما عن سبلها التعبيرية في العمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزا ولكنها بحث دائم ومستمر.

لم يتوقف عن الكتابة منذ نصه الروائي الأول: البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل غامر صوب البحر) الذي نُشر لأول مرة في دمشق سنة ١٩٨١ قبل أن يعاد نشره في الجزائر بعد سنة، وأثار اهتماما نقديا معتبرا. أصدر بعده روايته المعروفة نوار اللوز التي تُدرَّس اليوم في العديد من الحلقات العلمية، في الكثير من الجامعات العربية.

لكن جدارة واسيني الإبداعية تجلت أكثر في روايته الكبيرة الليلة السابعة بعد الألف بجزئيها: رمل الماية والمخطوطة الشرقية التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

تحصل في سنة ٢٠٠١ على جائزة الرواية الجزائرية.

تُرجمت بعض أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

كتاب الأمير (مسالك أبواب الحديد)، أول رواية عن الأمير عبد القادر. المغامرة من هذه الناحية تستحق كل الاهتمام لأنها تلغي الحافات، حافة التاريخ وحافة المتخيل. فهي لا تقول التاريخ لأنه ليس هاجسها، ولا تتقصى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية. تستند فقط على المادة التاريخية وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله: الاستماع إلى أنين الناس وأفراحهم وانكساراتهم، إلى اندفاعات الأمير وهو يحتج على والده الذي أعدم بدون استشارته قاضي أرزيو، إلى غليانات بوجو لأن الأمير تركه ينتظر على حافة التافنة، إلى وقع خطى مونسينيور ديبوش، قس الجزائر الكبير، وهو يركض بين غرفة الشعب بباريس وبيته للدفاع عن الأمير السجين بأمبواز Amboise ولا يرتاح إلا عندما يراه يركب سفينة لابرادور Labrador متجها إلى القسطنطينة بتركيا.

رواية كتاب الأمير، فوق كل هذا، درس في حوار الحضارات ومحاورة كبيرة بين المسيحية والإسلام، بين الأمير من جهة ومونسينيور ديبوش ونابليون الثالث من جهة ثانية، التي تفضي إلى إعادة تشكيل وعي كل الذين انغمسوا في حروب القرن التاسع عشر. حروب وجد الأمير فيها نفسه على حافة قرن ينسحب بكل أشواقه وهزائمه ومفاخرَ كان السيف سيدها وقرن جديد كانت فيه الآلة والبارود هما سيدا الحروب والتطور.

الناشر

ما نُشِر هنا هو الباب الأول فقط من رواية كتاب الأمير، وهي مكونة من ثلاثة أبواب. وستُنشر كاملة في دار الآداب، بيروت في مطلع سنة ٢٠٠٥.

يحيى الشيخ

ولد عام ١٩٤٥ في قرية جنوب العراق. بدأ يعرض أعماله كفنان محترف منذ ١٩٦٥. شارك في عدة معارض عالمية وأغلب المعارض الوطنية في العراق وخارجه.

تعددت اهتماماته وتنوعت بين يديه تقنيات الفن فهو رسام وغرافيكي ومصمم كتب وله ملصقات سياسية وثقافية عراقية وعربية عديدة وهو ناقد وأستاذ للفن.

تميز الشيخ بتعبيريته الحادة وأنجز مجموعات غرافيكية ذات طابع ملحمي عالج فيها أزمة الإنسان وتشرده وكفاحه المرير من أجل العدالة. تزداد أعماله أهمية بسبب صدق التحامه مع محطات تغربه التي لم تنتهي بعد. من العراق الذي غادره عام ١٩٧٧ دون أن يرجع إليه حتى اليوم، إلى روسيا وسوريا وليبيا والأردن وأخيراً النروج قضاها فناناً متفرغاً ومصححاً للصحافة واستاذاً للفن.

أقام خلال حياته ١٥ معرضاً شخصياً توزعت منذ أولها في بغداد عام ١٩٧٠ بين موسكو، دمشق، طرابلس الغرب، تونس، لندن، باريس، مسقط، وفي تروندهايم وسط النرويج حيث يقيم ويعمل حالياً.

سادت أعمال الشيخ نزعة تجريبية رست بها على ضفاف متفردة خاصة به. كانت الطبيعة النباتية وما تنطوي عليه حقل تجاربه الأهم، فاصطبغت أعماله بألوانها وأشكالها ورؤاها مع تجريد أقصى المرئي إلى ما ورائه.

يعكف الشيخ حالياً على صياغة لوحاته من مادة الصوف الطبيعي (اللبّاد) وبفعل مذاقها القطري وأصالتها يقدم لنا الوجود بلغة بصرية شديدة الإثارة شكلاً وملمساً تذهب بالفن بعيداً عن ما ألفته اللوحة التقليدية وتعيده إلى حضنه الأُم: الطبيعة.

كتاب في جريدة

الراعي
محمد بن عيسى الجابر
MBI FOUNDATION

المؤسس
شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي
ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية
صالح بركات
غاليري أجيال، بيروت.

المَقَرّ
بيروت، لبنان

*** يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة**

تصميم و إخراج
Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة
هناء عيد

المطبعة
پول ناسيميان،
پوميغرافور برج حمود بيروت

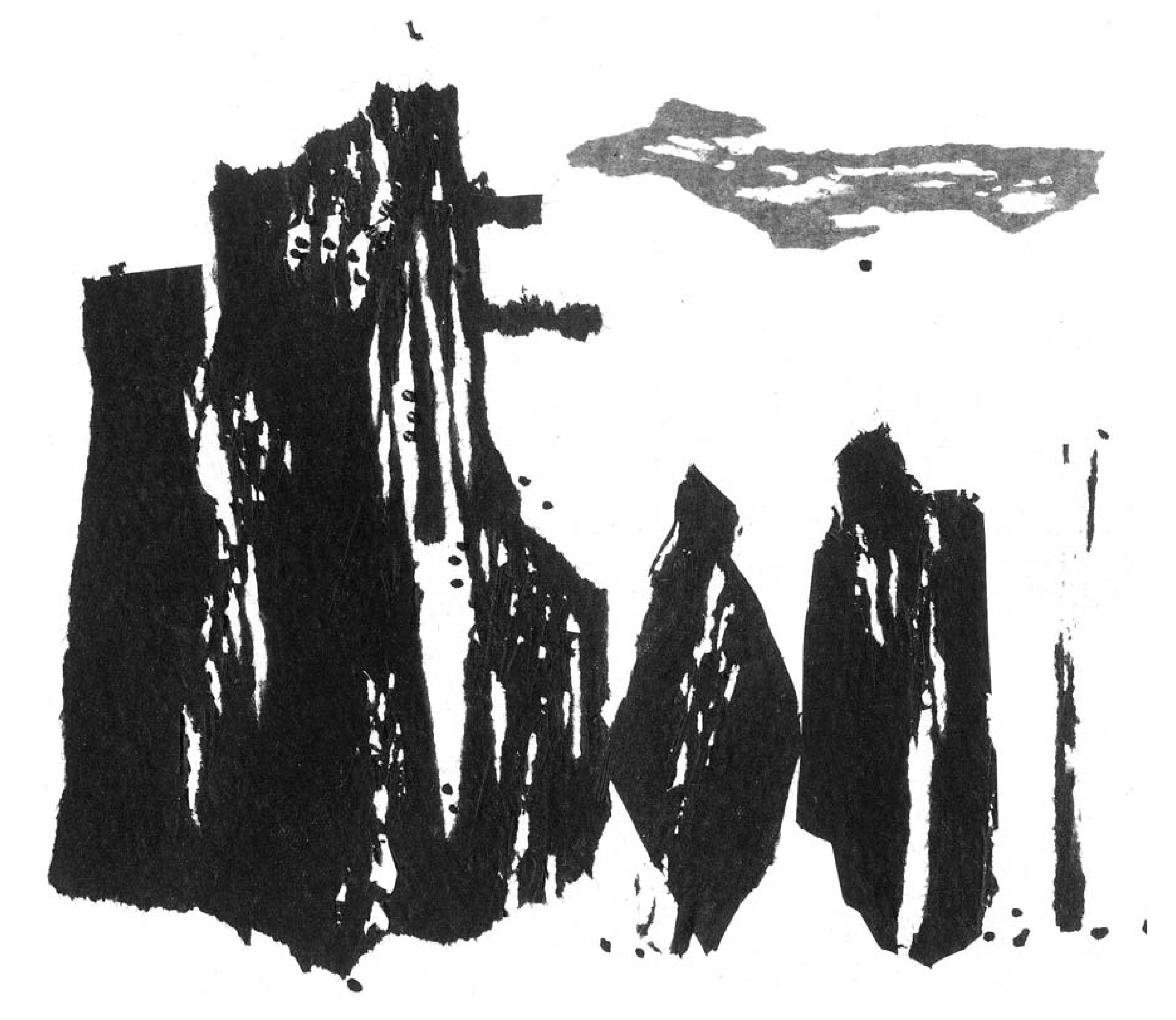
الإستشارات القانونية
"القوتلي ومشاركوه. محامون"

الإستشارات المالية
ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق
محمد قشمر

الصحف الشريكة
الأهرام القاهرة
الأيام رام الله
الأيام المنامة
البلاد جدة
تشرين دمشق
الثورة صنعاء
الخليج الإمارات
الدستور عمّان
الرأي عمّان
الراية الدوحة
الرياض الرياض
الشعب الجزائر
الشعب نواكشوط
الصباح الرباط
الصحافة الخرطوم
العرب طرابلس الغرب وتونس
مجلة العربي الكويت
القدس العربي لندن
النهار بيروت
الوطن مسقط

خضع ترتيب أسماء
الهيئة الإستشارية
والصحف للتسلسل الألفبائي
حسب الاسم الأول



كتاب في جريدة
العدد الخامس عشر
التسلسل العام: عدد رقم 80
(6 نيسان 2005)

ص.ب 1460-11 . بيروت، لبنان
تلفون/فاكس 630 248 (1-961+)
تلفون 219 330 (3-961+)
kitabfj@cyberia.net.lb

كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد

واسيني الأعرج

«في انتظار القيام بما هو أهم، أعتقد أنه صار اليوم من واجبي الإنساني أن أجتهد باستماتة في نصرة الحق تجاه هذا الرجل وتبرئته من تهم خطيرة ألصقت به زورا وربما التسريع بإزالة الغموض وانقشاع الدكنة التي غلفت وجه الحقيقة مدة طويلة.»

مونسينيور ديبوش Monseigneur Dupuch

"Si tous les trésors du monde était à mes pieds et s'il m'était donné de choisir entre eux et ma liberté, je choisirai la liberté"

الأمير عبد القادر L'Emir Abdelkader

الأميرالية (١)

٢٨ جويلية ١٨٦٤ فجرا. الرطوبة الثقيلة والحرارة التي تبدأ في وقت مبكر. الساعة تحاذي الخامسة. لا شيء إلا الصمت والظلمة ورائحة القهوة القادمة من الجهة الأخرى من الميناء، ممزوجة بهبات آخر موجة تكسرت على حافة الأميرالية التي كانت تبدو كظلال داكنة هاربة نحو ساحل البحر ليغيب جزؤها الأمامي تحت كتل الضباب التي بدأت تلف المكان شيئا فشيئا.

لا شيء إلا الصمت والتموجات الهادئة لبحر مثقل بالسفن والأحداث. أضواء خافتة، تكاد لا ترى من وراء الجبل العالي، ما تزال تقاوم سوادا كثيفا بدأت تخترقه بعض الهالات الذهبية التي كانت تندفن وراء ظلمة لا تكاد تُظهِر إلا خطوط القمم الفاصلة بين الجبل والسماء.

عندما رأى جون موبي[1] زورق الصياد المالطي يقترب من حافة الأميرالية، لوح له بالقنديل الزيتي الذي كان بيده، مرات عديدة، قبل أن يطفئه ويضعه بمحاذاة الحائط القديم الذي يفصل البحر عن اليابسة. أخذ جون موبي كيسه. دفع بالأكاليل الثلاثة نحو القارب، ثم مد يده نحو الإكليل الرابع الذي كان أكبرها. ساعده المالطي على وضعه في الجهة الأخرى من القارب حتى لا ينفرط. مد جون موبي رجله اليمنى بحذر، وبمساعدة الصياد، ألحق الرجل اليسرى حتى صار كلية داخل القارب. جلس قليلا وهو يتنفس بصعوبة. رتب أشياءه وهندامه بحذر شديد ثم تنفس عميقا. أغمض عينيه قليلا ثم همهم خوفا من أن يسمعه آخرون:

– حركاتي صارت اليوم ثقيلة جدا. بدأنا نكبر ولم يعد الجسد يسعفنا مثلما كان. عذرا يا أخي، كل شيء تكاتف ضدنا، الشيخوخة والأمراض وقسوة الحياة.

– لا تهتم يا سيدي جون. ما تزال البركة. نمشي؟

رد جون موبي بآلية:

– يا الله. نمشي.

عندما فتح جون موبي عينيه على وقع هسهسة المجدافين وهما يشقان عمق البحر، كان الزورق قد ابتعد قليلا عن الميناء وزيت السفن والأميرالية. فتح الحقيبة الجلدية القديمة، ثم أخرج بوقالات الأتربة التي كان خائفا عليها من الانكسار.

– أنت تعرف قيمتها. لقد حملت هذه التربة من بوردو وأخاف عليها أن تتبعثر قبل وقتها في مكان غير المكان الذي حدده مونسينيور ديبوش.

– المؤكد أنك كنت تعرفه جيدا؟ تساءل الصياد المالطي.

– مونسينيور أنطوان ديبوش[2] كان أبي وأخي. كان كل شيء في حياتي. خدمته أكثر من عشرين سنة، جئت معه إلى هذه الأرض عندما عين أسقفا على الجزائر وصاحبته في كل منافيه إلى أن مات.

– تأخرتم كثيرا في نقل رفاته، ثماني سنوات بعد موته؟ كثير. ألم يكن ممكنا نقله مباشرة بعد وفاته؟ ربما أسعده ذلك وأراحه على الأقل في قبره.

– وماذا يستطيع خادم مثلي أن يفعل سوى أن يذكِّر ذوي الشأن من حين لآخر. وصيته ظلت عالقة في القلب. أشكر الله أنها وجدت مسلكها اليوم وأن مونسنيور دو بافي[3] توصل إلى إقناع العائلة وسكان بوردو كذلك الذين منحوه كل محبتهم بضرورة تنفيذ الوصية. يجب أن لا ننسى هذا Mieux vaut tard que jamais. هكذا يقول الذين اختبروا الحياة.

1 Jean Maubet
2 Monseigneur Antoine Dupuch
3 Monseigneur de Pavy

– معك حق.

كان قارب الصياد المالطي ينزلق بهدوء على سطح الماء، مخلفا وراءه بياضات وفقاعات صغيرة. لا شيء كان يسمع من بعيد وسط هذه السكينة وهذا الصمت الكنسي إلا صوت الماء وهو ينكسر تحت وطأة المجدافين وهما يغوصان عميقا في البحر مخلفين وراءهما خطا مستقيما مثل الذي يحرث في الماء.

– هل يريد سيدي أن نتوغل أكثر نحو العمق؟

– نحو أبعد وأنظف نقطة حيث لا زيوت ولا نفايات. حيث لا شيء سوى الصفاء والنور والحياة الصامتة للأشياء كما في بدء الخليقة. مونسنيور ديبوش كان يحب الماء والصفاء والنور والسكينة على الرغم من الظروف القاسية التي لم تمنحه إلا المنفى والجري وراء سعادة الآخرين حتى نسي نفسه. لقد منح كل شيء للدنيا ونسي أنه هو كذلك كائن بشري، في حاجة لمن يأخذه من الكتف بشوق ومحبة ويحسسه بوجوده.

– الناس الكبار دائما هكذا. لا نعرف قيمتهم إلا عندما ينطفئون مخلفين وراءهم ظلمة كبيرة وحيرة وخسارة لا تعوض وأسئلة تجرح الحلق والذاكرة.

عاود الصياد المالطي جدفه باتجاه الأعماق حيث تنتفي الأشكال وتتداخل لتصير شيئا واحدا. واصل حركاته الآلية قبل أن يترك القارب يتحرك من تلقاء نفسه نحو شمس كان يستعصي عليها الخروج النهائي من دكنة السواد التي بدأت تنسحب شيئا فشيئا مخلفة وراءها هالة ذهبية كان جزؤها السفلي ينزلق على سطح الماء.

– سنميل عقدة نحو الشمال حتى نبتعد قليلا عن طريق السفن التي تدخل الميناء. هكذا نكون على الأقل في مأمن.

– السفينة التي تقل مونسينيور ديبوش ستتصل بعد الظهر. أنا متأكد اليوم أن مونسينيور ديبوش سيكون أسعد إنسان حتى وهو في تابوته. تربته ستنتثر على هذه المياه، تماما في الموقع الصافي الذي عندما ضاقت عليه سبل الدنيا، خرج منه ولم يلتفت وراءه مخافة أن يموت بالشهقة. عظامه ستجد أخيرا مأواها الطبيعي على هذه الأرض التي أحبها، خرج منها تحت ضغط الجشعين وهو يشعر بجوع لا يوصف نحوها.

بهدوء كبير، حرك الصياد من جديد المجدافين ليندفن الزورق فجأة في عمق البياض الذي خلفته الأشعة الشمسية الأولى التي خرجت من وراء الجبل الذي يطوق المدينة. كانت مفرطة النور، متوغلة في الضباب الذي بدأ يتصاعد من البحر ويغلف القارب الصغير. الشعاع الذي تسرب مثل الشلال، أعطى لمعانا خاصا للأتربة التي نثرها جون موبي مثلما تنثر حبات اللؤلؤ في فضاء واسع.

– هذه الأتربة التي وطئها مونسينيور أو نام عليها للمرة الأخيرة. إنها ترابه الذي أحبه وانتهى إليه باستكانة. هكذا أوصاني، أن أزرع تربة رفاته مثل الذي يزرع حبوبا في فضاء واسع، ستنبت يوما خيرا وطيبة.

لم يرد الصياد المالطي ولكنه واصل توغله في عمق البحر، وسط ضباب حليبي ازدادت كثافته كلما توغل الزورق أكثر. لم يكن هناك أي أثر لأية موجة أو حركة باستثناء وقوقات النوارس التي بدأت تملأ الأمكنة بأعدادها الهائلة ويشعران بها على رأسيهما. كلما رمى جون موبي حفنة تراب، تجمعت بقوة ثم غطست بمناقيرها الدقيقة في سطح البحر محدثة صوتا ناعما وحادا.

انحنى جون موبي مرة أخرى. تلمس الماء الدافئ. بان صفاءه الكبير عندما تلألأت حباته المتسربة من بين أصابعه. أخذ الإكليل الأول ثم حطه بهدوء على سطح البحر بحذر كبير، كأنه كان خائفا من تلاشيه. في لحظة من اللحظات رأى جون موبي البحر كعروس تستقبل إكليل الزفاف وتكتم بصعوبة سعادتها القصوى التي ارتسمت في عينيها المنكسرتين قليلا.

استقام جون مرة أخرى في جلسته بعد أن شعر بآلام الظهر، وهو يحاول أن يفهم هذا اللون النيلي الذي كان يتدحرج داخله القارب القديم ويتحسس الرائحة التي تسربت قوية إلى أنفه مثل العطر مانحة إياه شهوة التنفس عميقا.

أخذ حفنة أخرى من التربة وطوح بها بعيدا حيث ذابت في بياض الضباب ثم استرق السمع إليها وهي تتساقط الواحدة تلو الأخرى على سطح البحر مثل رشاش المطر الربيعي الذي يسميه سكان البلاد سلم–نام.

– الآن صار مونسينيور ديبوش في عمق البحر. لم يكن يحلم بعرس أفضل من هذا. أنا سعيد من أجله وأنه تخطى أخيرا عتبات المنفى القاسي الذي عاشه.

كانت الأشعة قد اخترقت جزئيا الضباب الكثيف مخلفة وراءها إشعاعا قويا غطى على الظلال الفجرية الأخيرة وكسا البحر بغلاف يشبه في لمعانه انعكاسات المرايا العملاقة.

– ارتبط بهذه الأرض فدافع عنها باستماتة ودافع عن رجلها الكبير، الأمير مثل الذي يدافع عن كتاب مقدس. استمات في الدفاع عنه حتى جعل حياته كلها رهن إطلاق سراحه. البارحة قضيت الليلة بكاملها أقلي كلماته الأخيرة التي كنت أظن عبثا أني أعرفها عن ظهر قلب، لأفهم عميقا سر هذا الحب. الأمير كان وسيلته للوصول إلى المحبة العليا.

– الحق أحيانا فوق الأديان.

– الرجل الحق هو الذي يجعل من الحق ضالته. مونسنيور لم يفعل أكثر من ذلك طوال عمره وكان يظن نفسه دائما مقصرا في حق الذين يطلبون عطفه وحنانه.

هدأت أصوات النوارس ولم تعد تسمع وقوقاتها التي كانت تملأ المكان قبل قليل بعد أن يئست من صيدها. وضع الإكليل الثاني بهدوء كبير مثلما فعل مع الأول ثم قام بكل استقامة وطوح بعيدا مرة أخرى بحفنة من الأتربة التي ذابت في عمق السماء تحت شعاع منعه تماما من النظر إليها وهي تسقط واحدة واحدة. عندما وضع يده على جبهته لكي يقي عينيه من حدة النور، رأى البحر وقد مال لونه نحو خضرة زيتية باردة هي نفسها التي رآها عندما دخل هذه الأرض لأول مرة بصحبة مونسينيور ديبوش في سنة ١٨٣٨ وأثار وقتها انتباه مونسينيور ديبوش.

– **مونسنيور؟ هل رأيت؟ بحرهم أخضر وليس أزرق مثل بحرنا؟**

– **كل بحار الدنيا متشابهة يا عزيزي جون. اذا أردت أن تعرف أسرار الماء أدخل البحر فجرا وسترى كل عبقرية الله في الألوان والتوليف.**

لم يكن مونسينيور ساعتها يعرف وهو يرمي بكلماته في عرض البحر أنه كان يفتح عيني على عالم لم أكن أسمع به إلا في الكتب والقصص العجيبة.

عندما أخرج جون موبي كفه للمرة الثالثة من البوقال الرخامي ممتلئة بالتربة، رأى وجه مونسنيور مكسوا بالنور وعلى رأسه هالة من الألوان. كان قلبه حزينا وكئيبا. أول مرة ينزل في أرض الحرب وهو الذي تعلم في سيمينار باريس أن يجهد في إقناع الناس بحب بعضهم البعض. العالم كان يتغير بسرعة كبيرة. رآه وهو يستلم تمثال العذراء السوداء البرونزي من يد مونسنيور دي كيلين De Quéléne أسقف باريس في سنة ١٨٣٨ كهدية من داخلية الساكري– كور بالقرب من مدينة ليون. ثم رآه وهو يقاوم دمعته المنكسرة ويكتب باستماتة رسالته إلى الأمير ينشده فيها إطلاق سراح زوج المرأة التي جاءته

في ليلة عاصفة تطلب منه أن يتدخل لإنقاذ زوجها.

– مونسينيور كان يعرف جيدا ما معنى أن يفقد الإنسان حريته. نشعر بنفس العطش نحو هذه الأرض. قال لي ذات مرة وهو طريح الفراش: أتمنى أن يمدني الله بعمر آخر لأخدم هذه الأرض التي حرمت منها في وقت مبكر. سأعطيها رفاة الجسد إذا كان رماد تربتي يسكت الأحقاد ويوقظ حواس النور والحب في قلوب الناس. لم يكن مونسينيور يدري أنه كان يقطع وعدا على نفسه سيكبله حتى موته.

– عندما يكون الضباب على سطح البحر، أشعة الشمس الفجرية تزداد بياضا ونصاعة ويزداد اللون النيلي عمقا. مونسينيور لا يمكنه أن يحلم بيوم أفضل من هذا لرؤية المدينة للمرة الأخيرة قبل أن يرتاح نهائيا على هذه التربة التي اختارها مأوى له.

– هكذا كان سيدي يشتهي أن يبعثر رماد تربته في كل الأطراف عله يطفئ النيران المشتعلة في أعماق الناس. منذ أن غادرْنا هذه الأرض، أنا وهو، في ذلك الفجر، حدثت حالة بياض في الذهن سرعان ما امتلأت من جديد عندما وجد نفسه في مواجهة الأمير الذي حاوره وأحبه حتى قبل أن يراه.

كانت خيوط الشمس الأولى قد اتضحت تماما واختلطت ألوانها بلمعان سطح البحر والنسيم الخفيف الذي تسرب إلى أنفه. تنفس جون موبي عميقا قبل أن يترك نفسه يتهاوى تحت دوخة المكان. أغمض عينيه وترك نفسه يتهاوى ويغرق وسط كتلة الضباب التي غمرت القارب بكامله.

زادت سكينة الماء أكثر على الرغم من تسارع المجدافين بيد الصياد الذي دفع بقاربه إلى أقصى نقطة في عمق الساحل لوضع الإكليل الأخير. عندما التفت جون إلى الوراء، لم ير شيئا. غاب الميناء والأميرالية التي لم تظهر إلا بعض أعاليها. وانطفأت القصبة ببناياتها البيضاء التي تعودت أن تتسلق الجبل الذي يعطي بظهره للبحر.

جنح القارب مرة أخرى قليلا نحو اليمين تحت هزات عنيفة للماء، متفاديا كثافة الضباب وصوت السفينة التي لم تمر بعيدة عنهما، لم يرها ولكنه سمعها وهي تقترب من الميناء، تمخر الأمواج وتشق صدر البحر الأملس كمرآة. ثم مرة أخرى عاد الصفاء إلى المكان وعاد الماء إلى وضعه الأول. تدحرج القارب أكثر نحو اليمين، بعيدا عن الأميرالية التي غابت هذه المرة نهائيا وتحولت إلى مجرد ظل هارب نحو فضاء غير محدد، ظلت الأنوار تتكسر عليه بقوة لتدفع به نحو التلاشي. فجأة، يفتح جون عينيه على معالي قلعة ماتيفو[4] التي أطلت بأعناقها المتعددة عاليا نحو شمس زادها الضباب الكثيف نصاعة وصفاء. فجأة توقف المركب وكأنه وجد أخيرا مركز الأرض الذي ظل مدة طويلة يحوم حوله.

– أعتقد أننا لا نستطيع التوغل أكثر. ممنوع. وإلا صرنا في مرمى البوارج الحربية. حدود الصيد تتوقف عند هذه الحافة. في الأسبوع الماضي سجن أحد الصيادين المالطيين لهذا السبب.

تمتم الصياد وهو يحاول أن يدور برأس الزورق تجاه قلعة ماتيفو مرة أخرى، صوب أقصى درجات النور الفجري، في أجلى صوره النقية قبل أن يلامس زيوت البواخر الوافدة من بعيد والوجوه المتكلسة التي تملأ الميناء.

– الآن إذن؟

– نعم الآن.

انحنى الرجلان عميقا على حافة الزورق الذي مال قليلا على جنبه الأيمن، ثم حملا، كل واحد من جهة، الإكليل الكبير المرصع بالنوار والأقحوان والنباتات الحية ثم انحنيا في وقت واحد ووضعاه على وجه البحر في النقطة التي حدداها أنها الأكثر صفا. تدحرج الأكليل في مكانه قليلا ثم غاب في غمرة النور والضباب.

– الآن انتهى كل شيء وهدأت الروح قليلا. أشعر بثقل انزاح نهائيا من على صدري. مونسنيور ديبوش يستحق أن نتعب من أجل روحه.

– الوعد دين.

– لقد وعدته وهو على فراش الموت أن أفعل ما أفعله اليوم قبل نقل جثماته إلى الجزائر. لم يطلب الشيء الكثير. كم كنت أخاف أن أموت وأن لا أقوم بما يجب القيام به. الوعد على الرقبة صعب. ومع مونسينيور أكثر صعوبة.

– ها قد منحك الله ما كنت تنتظره.

– الآن يحق لي أن أصطف مع الناس الذين غادرتهم منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنتظر مع القادمين وصول رفاته إلى هذه الأرض وإذا منحني مونسينيور بافي بعض بركاته سأكون من الوفد الذي سيحمل رفاته ويضعها مؤقتا في الأميرية في انتظار الانتهاء من إنجاز القبر في الكاتدرائية.

– هل كلمت مونسينيور بافي عن الأمر.

– مباشرة لا ولكنه يعرف كل شيء ولم يمانع في أي شيء ما دام ذاك يدخل في وصية مونسينيور ديبوش. لقد بذل مجهودا كبيرا لنقله إلى هذه الأرض.

كان البحر مثل المرأة. لونه تغير من زرقة حادة في مثل هذا الموسم إلى لون نيلي يميل نحو البنفسجي الغارق في بياض ناصح رغم بياض الفجر. شيء نادر في هذا الصيف. يزداد ثقل الرطوبة. البارحة كان البحر عاصفا ومجنونا على غير عادته في مثل هذا الفصل، اليوم، الوضع تغير كثيرا. الضباب الكثيف والبخار المتصاعد من كل مكان لم يمنعا الزورق من الدخول في عمق البحر. تمدد جون موبي في القارب القديم، رأى الأشعة التي كانت قد بدأت تدفئ المكان والنهار الذي أصبحت كل ملامحه واضحة. أخرج كتابا من تحت لباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الرهبان وفتحه على الصفحة الأولى وبدأ يقرأ بالتدرج. رأى العنوان الذي كان يرتسم بخطوط عريضة وواضحة جدا:

عبدالقادر في قصر أمبواز.

مهدى إلى السيد لويس نابليون بونابرت، رئيس الجمهورية الفرنسية.

بقلم مونسنيور أنطوان- أدولف ديبوش أسقف الجزائر السابق.

ثم في أسفل الصفحة كلمة **بوردو** مكتوبة بخط بارز وتحتها:

الطبع والليتوغرافيا ل: ح. فاي. شارع سان كاترين. ١٣٩. أفريل ١٨٤٩.

ورَّقه قليلا بين يديه قبل أن يفتحه على أوراق البداية.

لا يعرف جون بالضبط ما هو الداعي لكل هذه التفاصيل ولكنه أحس أن كل ما كان يلمسه كانت له قيمة ما. ليلة البارحة قضاها في إعادة قراءته. كلما فتحه عرف لماذا اختار مونسينيور أرض الجزائر كمأواه الأخير. عندما قلب الصفحة بانت صورة ليتوغرافية لمونسينيور ديبوش بالحبر الصيني الغامق هي نفسها التي كان يعلقها الأمير في البهو المؤدي إلى الصالون الذي كان يستقبل فيه ضيوفه في سجن قصر أمبواز. يبدو مونسيور في الليتوغرافيا هادئا وقريبا من مصوره، ينظر نحو أفق غامض بعيدا عما كان يحيط به، بلحيته السوداء المنسدلة على صدره والتي تكاد تغطي الجانب العلوي من الصليب الذي كان يتدلى بارزا من عنقه. اللباس الفضفاض الأسود الذي كان يرتديه أعطاه سمنة غير حقيقية. أما قبضة يده اليمنى التي كانت تنام على ركبته فقد برز على سبابتها خاتم خشن لم يتركه مونسينيور ديبوش حتى مات. بينما اليد اليسرى، كانت تحتضن الإنجيل وتقبض عليه بلهفة كبيرة مخافة ضياعه.

قلَّب جون موبي الصفحة الموالية، تمتم وهو يقرأ افتتاحية الكتاب قبل أن يغرق في تفاصيل الخطوط وضباب الكلمات وصراخات مونسينيور ديبوش التي كانت تأتي من بعيد مكتومة وكأنها كانت تأتي من بئر غميق:

«أعود للتو من قصر أمبواز، قضيت أياما عديدة تحت سقفه المضياف، في حميمية نادرة مع ألمع سجين عرفه القصر. أعتقد أنني أكثر معرفة من غيري بعبد القادر وأستطيع اليوم أن أشهد بالحق من يكون هذا الرجل. للأسف، أثناء عودتي إلى بوردو، صادفت أناسا كثيرين أهلا لكل ثقة، لديهم فكرة غير دقيقة وناقصة عن هذا الرجل مما سيتسبب حتما في تأخير تجلي الحقيقة إلى يوم غير معلوم. وأظن صادقا لو أن كل الفرنسيين عرفوا عبدالقادر مثلما أعرفه اليوم، لأنصفوه في أقرب وقت. لهذا أتصور أنه من واجبي الإنساني أن أفعل شيئا في انتظار القيام بما هو أهم... »

كان الضباب قد لف المركبة ولفها مثل الذي يغطي جسدا هشا يخاف عليه الانكسار. ذاكرة جون موبي، على الرغم من مشقة السفر، ازدادت حدة وصفاء وسط كومة غير محدودة من التفاصيل التي تزاحمت دفعة واحدة في رأسه...



4 Matifou

–١–

١٧ جانفي ١٨٤٨. نزع مونسنيور ديبوش الورقة من الرزنامة بنوع من الانفعال وهم برميها ثم عدل عن الفكرة بشكل آلي قبل أن يدفنها بين بقية الأوراق الأخرى التي كانت تملأ الطاولة. أغمس قلمه في الحبر فشعر بخشونة ما.

– جون، قليل من الماء الساخن من فضلك. هذا الحبر ثقيل ويعطل حركة القلم.

– أمر سيدي.

– هل تعرف يا جون هذا اليوم؟

– كيف لا وأنا أرى يوميا سيدي يعد الأيام بقلق كبير؟

– معك حق. عندما ندافع عن قضية نصير مرضى بها.

وضع مونسنيور ديبوش قليلا من الماء الذي قلل من سواد الحبر وتخثره، ثم انحنى من جديد على الورقة التي كانت بين يديه. رفع رأسه نحو السقف للمرة الأخيرة بحثا عن جملة كانت على رأس الذاكرة قبل أن تذوب داخل فيض الكلمات المتزاحمة. تحسس قليلا الريشة التي كانت تدور بين أصابعه ثم تركها تنزلق على الورقة مع تمتمات لم يستطع كتمها:

«الأحقاد أحيانا تعمي البشر. الحل الوحيد المتبقي بين يدي هو أن أبدأ في كتابة هذه الرسالة إلى رئيس الجمهورية لويس– نابليون بونابرت. رسالة لا شيء فيها إلا ما رأته العين أو أملاه القلب. الأوضاع تغيرت ولابد أن يكون لويس– نابليون بونابرت الذي عرف المنفى يدرك اليوم قسوة الظلم والضراوة التي يشعر بها الإنسان وهو بعيد عن التربة التي نبت فيها، بعيد عن الوجوه التي يصادفها يوميا قبل أن تنطفئ في انشغالات الدنيا الصعبة، وعن الأرض التي كلما شم ترابها ازداد قربا من آلامها.»

منذ البارحة ومونسنيور يهيئ أقلامه وحبره مثل طفل صغير لكي يكون حرفه واضحا وكلماته مسموعة. توقف قليلا عن الكتابة وفتح القصاصات الصحفية لجريدة المونيتور[5] التي يحتفظ بها بشكل مرضي خوفا من أن يضيع منه أي تفصيل من تفاصيلها. سطر على بعض التواريخ والكلمات قبل أن يعود من جديد إلى الكتابة.

عندما سمع مونسنيور أنطوان ديبوش[6] دقة الجرس الثالثة كان قد لم الرسائل والأوراق التي سهر ليلة البارحة على ترتيبها واحدة واحدة. دقق قليلا في نسخ جريدة المرشد الموضوعة على الطاولة الخشبية القديمة بعد أن قام بفليها حرفا حرفا وجملة جملة. وضع على رأسه معطفه القديم ليقي نفسه من الأمطار الغزيرة وخرج بسرعة:

- Oui! j'ai entendu, le monde ne va pas s'écrouler.[7]

- Monseigneur, je suis à l'heure comme prévu.[8]

رد سائق العربة الذي كان ينتظر عند الباب بعد أن سمع احتجاجات مونسنيور.

انطلقت العربة بسرعة مخترقة الدروب الباريسية الضيقة قبل أن تدخل في عمق الشارع الرئيسي. الحصان كان ثقيلا قليلا، لكن ثقله في مثل هذه الأمطار يساعده على الثبات ومقاومة الانزلاقات الكثيرة على الطرقات الحجرية والخروج من الأماكن الموحلة والبرك المائية التي كانت تصادفهما من حين لآخر في الأماكن المبعوجة. لا شيء يسمع إلا وقع الأمطار وصوت حدوتي الحصان وهو يعبر الشارع بخطوات منتظمة.

5 Le Moniteur

6 Antoine Adolphe Dupuch

7 نعم، سمعتك والعالم لن ينهار.

8 سيدي، أنا في الموعد كما اتفقنا.

تمتم مونسنيور ديبوش وهو يرتب قليلا من هندامه الأسود ويمسح لحيته الكثة من المياه التي علقت بها:

– أتعجب من هؤلاء الباريسيين كيف يتحملون هذه المدينة المتعبة. أقمت بها سنوات ولم أتعود عليها. ضخامتها تخيفني. ناسها ينفلتون من كل منطق وينقلبون بسرعة. من الصعب أن تثق في مزاج الباريسي.

– العادة يا موسنيور، العادة تعلم الناس تحمل كل شيء. رد سائق العربة وهو يحاول أن يوجه الحصان باتجاه الشارع الرئيسي، حتى الموت يا سيدي لم يعد يثير أحدا.

– الحياة نفسها لم تعد تعني الشيء الكثير يا ابني. يبدو أننا على حافة زمن كل شيء فيه تبدل أو هو بصدد التبدل.

اختلط وقع الأمطار بنقرات حدوتي الحصان وهي تنكسر على الأحجار الزرقاء التي تعبد الطريق المؤدي إلى المجلس الوطني.

رأى مونسنيور ديبوش باريس في هذا الفجر كما رآها في المرة الأولى، مدينة بها الكثير من العطش إلى نفسها، جميلة ولكن سرا فيها يشتعل في الداخل مثل حبل البارود ولا أحد يعرف متى ينفجر الكل، خصوصا مع التحركات الشعبية التي صارت تقليدا يوميا. ينزلون بعد الظهر وفي الليل لا تسمع إلا رشقات الرصاص وصوت البارود الذي تكتم أصواته الشوارع الضيقة وأخبار عدد الموتى أو الذين سيقوا إلى السجن.

هو لا يريد أن يتذكر متاعب المسافة التي قطعها ولا مصاعب الطريق من بوردو إلى هذا المكان. المهم أنه وصل ليلتين قبل انعقاد جلسة ١٧ جانفي. القضايا الكبرى تسقط أمامها المتاعب وتذلل كل المصاعب، تمتم في خاطره.

تبدو باريس بأحيائها الخلفية هادئة. لا شيء تغير. منذ أسبوع لم تتوقف الأمطار عن الهطول. السماء التي صفت قليلا ليلة البارحة سرعان ما عادت واسودت من جديد هذا الصباح، لا تسمع إلا الخشخشات والصوت الجاف للعربات وأصداء حدوات الأحصنة التي ترددها الشوارع الخلفية التي ما تزال فارغة. الفوضى التي حدثت ليلة البارحة ومقتل الشاب عند مدخل السوق لم تغير في عادات الباريسيين والبانكي[9] Le banquet الذي رفضت الحكومة السماح به جعل الوضعية تتعقد أكثر.

تصطف العربة الصغيرة التي يجرها حصان واحد ليس بعيدا عن بناية القصر حيث غرفة النواب التي جعلت الأشعة التي كانت تخترق الغيوم تشع قليلا على الرخامات اللامعة. يدخل مونسينيور ديبوش إلى البناية وفي يده محفظته الجلدية. رجل يندفع برأسه إلى الأمام بلحية كثة. الناس هنا يعرفونه جيدا من كثرة تردده على المكان.

– صباح الخير مونسنيور ديبوش. هل تحتاج إلى مساعدة.

– لا داعي. ما زلت قادرا على تحمل تبعات الحياة. هل وصلوا؟

– أغلبهم. الجنرال دو لامورسيار[10] وصل كذلك. أنت تعرف في مثل هذه الحالات يتسابق الناس للوصول مبكرا لتسجيل أسمائهم حتى يتمكنوا من التدخل مبكرا. بعضهم يقضي الليل هنا ليكون من أوائل المتدخلين.

– جيد.

أخيرا اقتنعوا؟ أتمنى أن لا يحدث ما يغير الدنيا رأسا على عقب، تمتم مونسنيور ديبوش في أعماقه وهو يعبر الساحة الشرفية تحت وقع الأمطار التي زادت حدتها ليختفي نهائيا داخل البهو المؤدي إلى قاعة المناقشات.

9 جلسة برلمانية مفتوحة يحضرها المواطنون البسطاء وممثلو الشعب وتناقش فيها قضايا الساعة بديمقراطية.

10 Le Général de Lamricière.

–٢–

كانت الساعة تشير إلى الواحدة عندما افتتح النقاش مع أن العادة أن تفتتح نقاشات الغرفة على الساعة الثانية عشرة والنصف. كانت الملفات بين يدي رئيس المجلس غيزو[11]. التفت نحو الحضور وهو يحاول أن يتفرس أعينهم. فتح الورقة التي وضعت بين يديه. بعد محاولات مضنية استطاع مونسينيور ديبوش بمساعدة دو لاموريسيير ومساندة صاحب السمو الملكي، حاكم الجزائر الدوق دومال[12] وبعض النواب أن يقنع المجلس بفتح ملف سلطان الجزائر عبد القادر.

افتتح رئيس الغرفة النيابية الدورة الخاصة:

– الجميع هنا يمكنا أن نبدأ هذه الدورة. نجيب عن التساؤلات الخاصة بوضعية عبد القادر. لدي الكثير من التدخلات. لنبدأ بحسب قائمة المسجلين. السيد بيلي دو لالوزيير[13]. تفضلوا.

– شكرا سيدي الرئيس.

تملل الكثيرون في أماكنهم لحظة وهم ينظرون إلى الأماكن الخلفية باتجاه الضيفين اللذين طلب منهما الحضور للشهادة. تدخل بيلي دو لالوزيير.

– سيدي الرئيس، لقد أخسرنا الصمت الشيء الكثير. فهمنا الوضعية ولكن الآن ماذا سنفعل؟ هل سنبقى صامتين. فرنسا قطعت وعدها وعليها أن تجد حلا. الأمر يتعلق بشرف الأمة والسلطان. هذا الرجل أعطي وعدا مكتوبا وموجود ضمن الملف الذي قدمه مونسنيور ديبوش والجنرال دولاموريسيير، شخصيتان لا يمكن القفز عليهما في هذه القضية.

– تعرف يا سيد بيلي، المشكلة ليست بسيطة. أكثر تعقيدا مما تتصورون. هناك مصلحتان يجب أن تتصالحا: الأولى، المصلحة العليا للدولة، والثانية الوفاء بالكلمة التي أعطيت. أنا على ثقة أن حكومة جلالة الملك ستجد تصالحا بين المصلحتين. وستفي بكل تعهداتها.

تدخل ميريو[14] في السياق نفسه:

– كان لدي مشروع بهذا الاتجاه وهو مساءلة الحكومة عن نيتها حول الوفاء بالتعهدات والضمانات التي سمعنا أن ولي العهد، الحاكم العام للجزائر قدمها للأمير؟ المعلومات التي قدمها وزير الخارجية يجب أن تحدد جيدا ما الذي يجب فعله في هذا الإطار. من الحكمة بمكان أن تدقق الحكومة في هذه الوعود وتحديد الإجراءات الواجب اتخاذها. فرنسا احترمت دائما وبعمق تعهداتها أمام أصدقائها وأعدائها. إذا ثبت ذلك على الحكومة أن تنفذ ما وعدت به خصوصا عندما يسلم العدو سلاحه على أساس وعد مسبق.

يتدخل لبرانس دولا موسكوفا[15] بشكل أكثر وضوحا ودقة وثقة كبيرة:

– أقولها صراحة على حكومتنا أن لا تتردد في ترسيم الوعد الذي قدمته لعبد القادر. لنتذكر قليلا كيف تمت الوقائع: عبد القادر عندما عرف إخفاق مفاوضاته مع سلطان المغرب وحبس خليفته البوحميدي عرف أن عليه أن يبحث عن مخرج مع الفرنسيين. لذلك قطع بكل شجاعة مسالك الملوية على الرغم من قوة مياهها والأوحال والأمطار، هو والستة آلاف شخصا والجمال والأحصنة وعدد هائل من الأغنام والعتاد الحربي. واسطاعت دائرته بكاملها أن تعبر بدون أن يبقى ولا رأس غنم على الضفة الأخرى. حنكة عسكرية عالية

11 Guizot

12 S.A.R le Duc d'Aumale

13 Pelet de la Lozère

14 Mérillou

15 Le prince de la Moskowa

تستحق كل التقدير والاحترام. وعندما عرف بانسداد كل المنافذ المؤدية إلى الجنوب، سلم نفسه ووضع سيفه بين يدي الجنرال دو لاموريسيير. هذا الأخير استقبله هو والثمانين فارسا الذين كانوا يحيطون به. ثم اقترح عليه شروط الاستسلام التي تعرفونها جميعا. الآن، هناك حلان لا ثالث لهما: إما اعتبار عبد القادر مجرم حرب وقرصان تافه وفي هذه الحالة يجب شنقه على الفور، أو اعتباره قائدا ومقاتلا سلم نفسه وفق وعد مكتوب وفي هذه الحالة يجب أن يعامل باحترام.

من آخر القاعة، من الجهة اليمنى، ينهض الجنرال ماربو[16] وقد احمر وجهه وعلت حواجبه الكثة سحابة ظاهرة وغموض مريب مقاطعا المتدخل الذي لم يكن قد أنهى بعد كلامه ببرودة كبيرة:

– يجب أن لا ننسى أبدا أن هذا الرجل الذي تدافع عنه اليوم، ذبح أكثر من ٣٠٠ سجين فرنسي في يوم واحد. إذا كنتم تعتبرون هذه الجريمة أمرا هينا، فاطلقوا سرحه ومرغوا شرف هذه البلاد في الأوحال.

– قد يكون. ولكني لست مقتنعا أن رجلا بمثل شهامته يعطي أمرا مجرما مثل هذا. توجد في التاريخ تجارب احترمت فيها معاهدات الاستسلام وأخرى اخترقت. ليس في الأمر أي جدة. فقد استسلم سينترا وبشروط لم تعجب الإنجليز في النهاية. رفضها البرلمان الإنجليزي مثله مثل الرأي العام ولكن في النهاية تم تنفيذ بنود اتفاقية الاستسلام وسمح لجيشنا أن يعود بعتاده وأسلحته. في إنجلترا يا سادتي تم التأسف على الاتفاقية المجحفة ولكن نفذوها، ما الذي يمنعنا اليوم من فعل الشيء نفسه مع اتفاقية سيدي إبراهيم.

– لم تجبني عن جريمة عبد القادر ضد مساجيننا.

– أنت قاطعتني. ليس في نيتي التهرب. يمكن أن نذكر الآن كل سلبيات عبد القادر وهي كثيرة جنرال ماربو. لا أملك الدليل القاطع على براءته ولكن على الأقل أستند على ما وصلنا من خلفائه وطبيعة عبد القادر وما سمعته من مونسنيور ديبوش الذي هو على اتصال دائم به ويمكنكم أن تسألوه، ثم أن حدسي يدفعني لأقول لا. أظن أن العملية تمت بدون دراية منه. لكن مادام عبد القادر قد سلم نفسه بشكل علني نحن مجبرون على احترام الاتفاقية. هل تريدون هل تتصرف حكومتنا مثلما تصرف الجنرال الإسباني الذي وقع وثيقة استسلام بايلن؟ مهزلة ستبقى في ذاكرة التاريخ وصمة عار ضد الذي لم يحترم وعده. فكروا قليلا وبتجرد تام.

تململت الغرفة قليلا، همهمات من الجهة اليمنى، قبل أن تواصل الاستماع إلى دو لاموسكوفا الذي واصل حديثه بمزيد من الحماس والثقة.

– احترامنا لهذا الجنرال العظيم دو لاموريسيير يمر عبر احترامنا لبنود الاتفاقية التي عقدها مع عبد القادر. من يستطيع اليوم أن ينكر على عبد القادر أنه قاوم من أجل وطنه ودينه ويستحق كل تقدير من جيشنا. لا نبالغ في تحويل الأمير إلى بلد مسلم. هذا شيء ثانوي أمام وعودنا. للضمانة على صدق النوايا فقد بادل الجنرال الفرنسي سيفه بسيف الأمير وهذا وحده يكفي للقول إن الضمانات المقدمة لعبد القادر كانت جادة.

– يجب أن لا نقلل من خطر هذا الرجل حتى وهو في بلد آخر. سيفكر حتما في العودة وتأجيج نيران الأحقاد بمجرد توفر فرصة الرجوع.

من على نفس المنصة يتدخل الليوتنانت – جنرال فافيي[17]:

– أيها السادة، من العبث الحديث في هذه الغرفة عن المخاطر المحدقة بفرنسا بسبب هذا الرجل ووضعها في نفس الميزان مع شرف فرنسا. أفترض أن الحكومة عندما عينت حكاما عامين في الجزائر منحتهم التعليمات وخولت لهم الصلاحيات. عندما سافر الدوق دومال إلى الجزائر كان يعرف جيدا أنه سيواجه لا محالة مشكلة عبد القادر. وإذا رأى أن ما اتخذه دو لاموريسيير لا يخالف التعليمات الحكومية، فلنزكه ونوقف هذا النقاش العقيم وأعفونا من هذه البهدلة التي تصرون على جدواها.

تعالت بعض الاحتجاجات من هنا وهناك

– رئيس المجلس السيد غيزو، يقول لنا إنه يجب الحفاظ على المصلحة الفرنسية والوفاء بالوعود. المشكل أن شرف فرنسا رهين بالتوقيع النهائي على الاتفاقية. عبد القادر الآن بين أيديكم وتستطيعون أن تفعلوا به ما تشاءون ولكن تذكروا قبل ذلك ملوككم: الملك جون، فرانسوا الأول، هنري الرابع، ولا تمسوا شرفهم وشرف هذه البلاد.

و بدأ النقاش ينسحب باتجاه المحاكمة. شيئا فشيئا تكاثرت الأسئلة التي تمس مباشرة الاتفاقية. كان وجه لاموريسيير قد اصفر وبدأت علامات التعب تملأ عينيه الجاحظتين وملامحه العسكرية الباردة. عندما نودي باسمه، كانت سحابة وجه الأمير قد ملأته ولم يعد يرى إلا ذلك اليوم البارد والمطر وصهيل الأحصنة والممرات الجبلية الضيقة:

– سمعت الكثير منكم أيها السادة وأن لكم أن تسمعوني قليلا. سمعت في هذه القاعة وفي غيرها تساؤلات مثل: تقاريركم تقول إن الأمير كان مجبرا على المرور من المضيق الجبلي القربوس ولا طريق آخر له؟ لماذا لم تلقوا عليه القبض وغيرها من الأقاويل السهلة؟ أنتم تعرفون أن رسائل الضباط العامين تكتب في مكان المعارك وبسرعة ولا وقت لدينا للشرح والتفصيل. اسمحوا لي أن أعود إلى تفاصيل ذلك اليوم وما هي حظوظ إلقاء القبض على الأمير ليلة ٢١ ديسمبر إلى ٢٢. قطع الملوية وتوغل أكثر في جبال امسيردا. الأمطار الغزيرة والظلمة عقدت من مهمته ولكنه كان مصمما على العبور. عرفت كل تحركاته وأنه يعمل على الانزلاق نحو الجنوب. أخوه الذي سلم نفسه قبل يوم أبلغني بذلك وكذلك حاكم وجدة الذي كنت معه في اتصال دائم أعطاني مخطط حركته وأنه سيمر إجباريا عبر قبائل وجبال بني ازناسن. حددت كل المواقع الممكنة على الخريطة كما يفعل أي عسكري في الميدان. تساءلت، هل يجب أن أسبقه وأغلق عليه كل الممرات أم أطوقه؟

– ولماذا لم تفعلوا؟ ردد أحد النواب الذي بدا صوته عنيفا ومنكسرا تحت الضجة التي هممت وهي تريد أن تسمع بقية الحديث.

– سهل يا سيدي الفاضل. سهل جدا أن نحل الأمور بواسطة الكلام ومن على كرسي وثير، ولكن يجب أن تضعوا أنفسكم في ذلك الوضع. عبد القادر كان محاصرا من الشمال من طرف ملك المغرب وكنا نسد عليه أبواب الجنوب. الأمير كان مثقلا بدائرته. لكن في مثل هذه الحالات، لمن يعرف تضاريس الأمكنة، لم يكن بإمكانه أن يمر من هناك هو وقافلته ولكني متأكد أنه كان سيمر عبر المضايق المختلفة هو وفرسانه. ومع ذلك على الساعة الثانية فجرا خرجت من معسكري لملاقاة الأمير وما كدت أصل حتى عرفت من خلال رجالاتي أن مفاوضات قد تمت، البقية تعرفونها جيدا.

– كان يجب أن تواصلوا محاصرته بدل المفاوضات، فقد كان مهزوما.

– أقول لكم ماذا كان يمكن أن آخذ لو سلكت هذا الطريق الذي تقترحه علي؟ كنت سأقوم بغارة أخرى وأخبركم بعدها بأني حجزت خيمة الأمير، سجادته، وربما واحدة من نسائه ومع بعض الحظ، خليفة من خلفائه.

تضحك القاعة محدثة همهمات تقاطعت فيما بينها في شكل نقاش غير واضح.

– ولكن هو، عبد القادر مع خيالته، سيكون قد فلت منا باتجاه الصحراء.

– إذن، لم يكن أمام الأمير سوى الهرب مع بعض خيالته وربما وصل وحيدا أو منقوصا إلى الصحراء. الأمير بدون دائرته لا يخيف وبقاؤه في الصحراء منعزلا أفضل من بعثه إلى الإسكندرية.

– طيب. ليكن. إذا كان وجوده في الصحراء أفضل لنا من وجوده في الإسكندرية، ابعثوا به إلى الصحراء فأنتم تسدون له خدمة جليلة، فهو لا يطلب سوى ذلك.

ساد صمت خفيف قبل أن يتدخل لاروشجاكلان[18]

– الكثير من الناس يتساءلون عن الهوة الفاصلة بين الالتزامات التي اتخذها حاكم الجزائر صاحب السمو الملكي الدوق دومال ورد فعل الحكومة اليوم؟ التزام شرف اتخذه الجنرال دو لاموريسيير ووافق عليه السيد الدوق دومال، فكيف نقبل اليوم أن نسجن عبد القادر؟ قد تكون هناك ظروف مرتبطة بسر من أسرار الدولة لا نعرفها ولكن، هل هناك حكم حقيقي عن الشرف أحسن من الوفاء؟

في نهاية الجلسة يصعد غيزو، رئيس المجلس مرة أخرى إلى المنصة ويقدم حوصلة الإجابات عن الأسئلة التي طرحت والنقاشات التي تمت، لم يخرج عن العموميات التي دخل بها الغرفة في البداية.

– ما قيل في هذه الجلسة كثير. أشكر السادة على ملاحظاتهم القيمة. سنرى فيما بعد، من خلال كل هذه التدخلات المتناقضة جدا وما وصلنا من وثائق وشهادات كيف نحسم الموقف باتجاه يضمن المصلحتين: مصلحة الدولة والوفاء بالتعهدات المقطوعة. هناك مشاورات مفتوحة بيننا وبين باشا مصر لكي يقبل أولا عبد القادر، لا نستطيع إجباره على ذلك. ثم عندما يقبل بالمبدأ سنتناقش حول الضمانات وشروط المراقبة التي لا أستطيع الإفصاح عنها هنا. ولكن سأرتبها بحيث نضمن أمنا كاملا لبلدنا.

16 Le Général Marbot
17 Le lieutenant général Fabvier
18 Larochejacquelin

-٣-

مر مونسنيور للمرة الأخيرة على نزل لاتراس La Terrasse حيث كان يقيم مؤقتا. لملم أوراق جريدة المونيتور التي كانت تملأ طاولته وسريره المتواضع، والرسائل الكثيرة التي وصلته من الأمير أو من الناس القريبين منه. فتح عينيه والنافذة المطلة على الحديقة ونظر إلى السماء. لم ير إلا سقفا ازداد انحناء أكثر مما كان عليه وسماء يابسة. القصاصات الصغيرة التي كتبها طوال هذه المدة سمحت له بالتعرف على الأمير بعمق. دفن أغراضه داخل حقيبة قديمة ثم استعد للخروج.

– مونسينيور! كأنك تحمل الرصاص في هذه الحقيبة.

– عزيزي جون أنت سيد العارفين، تدرك جيدا أن لا شيء بها إلا الأوراق والقصاصات الصحفية وآلام الناس المحرومين من كل شيء.

– لو كان كل الناس مثلك يا مونسينيور لتغير وجه العالم البئيس. ولكن...

– ومع ذلك فأنا أسعد مخلوق في الدنيا بكسر حاجز الصمت على الأمير.

– المصالح الصغيرة تعمي الناس يا مونسينيور. الكثير من الضباط مرتاحون ولا يريدون تشويشا على ترقياتهم ولهذا فهم في الكثير من الأحيان يظهرون غير ما يخفون.

عندما وجد مونسنيور ديبوش نفسه في الشارع، كان المطر قد توقف نهائيا وبدأ الليل ينزل على المدينة والغيوم السوداء قد غطت الشوارع بكاملها معلنة عن عاصفة محتملة. شعر في فمه ببعض المرارة ولكنه حاول أن يطمئن نفسه. صحيح أن الشيء الكثير لم يقل أو بقي عالقا ولكن على الأقل الحديث وصل إلى غرفة المنتخبين وتم فتح ملف الأمير الذي ظل يخيف الغرفة والحكام وضباط الجيش الذين لم يغفروا للأمير صمته على سجناء سيدي إبراهيم وعين تموشنت.

كانت شوارع باريس مغلقة مثل نفق الأموات. الباريسيون ينامون باكرا منذ أن بدأت القلاقل في المدينة. لا أحد في الطرقات سوى بعض المارة الذين يسرعون الخطى للوصول إلى مقاصدهم وبعض الكلاب والقطط الضالة التي تتقاتل في المزابل التي لم يترك فيها جياع باريس الشيء الكثير.

كان يعرف جيدا وهو ذاهب نحو محطة القطار الرابط بين باريس وأورليان ثم الذهاب إلى بوردو، أن عليه أن يتحمل مشقة أكثر من ٤٠٠ كلم ما بين السكك الحديدية والعوامات الثقيلة والعربات المجرورة. بدت له بوردو مدينة ناعمة وأقل خشونة من باريس. في المدار المؤدي إلى محطة القطار، سمع البارود والرشقات الجافة وبعض الصرخات هنا وهناك ورأى الخيالة الذين يملأون الأماكن بوجوههم الباردة وأحصنتهم الخشنة.

وضع باريس لم يكن إلى ما يرام.

– الأحسن يا جون أن نسرع الخطى قبل أن يقلع قطار أورليان.

قالها مونسينيور ديبوش قبل أن يندفن في لباسه الفضفاض.

شعرت كأن خوفا ما قد غطى عينيه فجأة. شعر بسرعة بحيرتي.

– لا تهتم يا عزيزي جون. ليس الموت برصاصة طائشة هو الذي يخيف ولكن الموت قبل الانتهاء من تحقيق ما نصبو إليه من خير للناس. كم أتمنى أن يمنحني الله قليلا من العمر لأرى الأمير خارج أسوار سجنه.

– أنت لا تسعى إلا للخير والله لا يحب إلا سعادة البشر.

عندما صفر القطار للمرة الأخيرة قبل الإقلاع، انسحب كل شيء من عينيه وحاول أن يسترجع صفاءه قبل أن ينام قليلا. لم يتذكر مونسنيور ديبوش شيئا مهما سوى تفاصيل صغيرة من حياته. وهو يستمع إلى ضجيج القطار البخاري الذي كان يمسح الأراضي الواسعة بسرعته غير المعتادة مرت بذهنه بعض تفاصيل الجلسة الأخيرة التي حاول عبثا أن ينساها. بسرعة، نزلت الظلمة على الضياع التي بدأت تسود قبل أن تندثر تفاصيلها نهائيا. فجأة، اختلطت عليه أوجه الذين عرفهم عن قرب، أساقفة ورهبان ويتامى وفقراء ومرضى ومساجين، وجه الأمير بكل صفائه وتلك المرأة التي لمعت كرأس سيف اصطدم بشيء حاد في عمق الظلمة القاسية. رآها وهي ترجوه أن ينقذ زوجها وتضع بين يديه رضيعها وهي ترتعد من شدة البرد ومن الخوف على زوجها. فقد وصلها أن العرب عندما يلقون القبض على ضحيتهم لا يفكرون في حل آخر إلا قطع الرؤوس وبعثها إلى الخليفة ليأخذوا مقابلها قطعا ذهبية وأحيانا يكتفون بقطع الآذان بدل الرؤوس للتخفيف من مهمة الإرسالية عندما يكون عدد المقتولين كبير. وقد وصلها أن بعضهم كان في الكثير من الأوقات، لا يتوانى عن قتل ذويه من البيض، ممن تشبه آذانهم آذان الروميين في صغر حجمها ويملأ زوادته ويذهب بها نحو الخليفة قائلا أنه قتلهم في مكان ما من الأمكنة ليأخذ حقوق صيده كاملة. كانت الزوجة شبه عارية وترتعد، عندما وقفت فجأة على رأس مونسنيور الذي أدرك في وقت متأخر أنها كانت هي السبب الأول أو الوسيلة التي وضعها الله في طريقه ليتعرف على الأمير ويذهب نحوه من خلال مبعوثيه قبل أن يلتقي به وجها لوجه في سجنه. عاد إلى تلك السنة بالضبط التي بعث له فيها برسالته الأولى، عندما كان أسقفا على الجزائر العاصمة. كانت الدنيا مظلمة والأحقاد كثيرة ولكن لا شيء كان يمنع من أن يصغي إلى ذلك الصوت الآتي من بعيد، صوت القلب الذي تنحني أمامه الحروب والموت والمظالم.



-١-

نوفمبر ١٨٤٨. هذا هو بالضبط وقت العواصف التي تكنس أحياء المدن العتيقة وتغطي مياه الأنهر بغلاف شفاف من أوراق الأشجار الصفراء. الخريف هذه السنة جاء مبكرا. كانت رياح البدايات قوية مما اضطر مونسنيور ديبوش أن يطلب مني أن أساعده على لملمة لباسه على رأسه الذي تعرى بفعل الرياح القوية.

– ساعدني يا جون، رياح الخريف تغلبني، لا أدري هل هو التعب أو الإنهاك الشديد.

– أنت متعب من كثرة العمل ولكن رياح الخريف مزعجة بعنفها وأتربتها وأوراقها التي تعمي الناس والطرقات.

عند مدخل قصر هنري الرابع في بو Pau أو القلعة كما يسميها الأمير وبعض أصدقائه. رأى مونسنيور ديبوش الكولونيل أوجين دوما[19] باستقامته المعهودة وهو يحاول بدوره أن يتقي أوراق الصفصافة العالية التي التصقت بوجهه ولباسه. عندما رآه هب نحوه بعناق كبير وبال تردد:

– مونسينيور، كيفك، لولا الأمير لما التقينا؟

– أنت تعرف أن أوضاعنا لا تبشر بخير. أحداث شهر فبراير كنست كل شيء بما في ذلك الملك وحل محله النظام الجمهوري. ماذا تريد، انشغالات الدنيا. ثم أن وضعية الدين غامضة في القانون الجمهوري؟ المهم كيف وجدت الأمير؟

– لا تهتم، سيُصلح كل شيء مع الوقت. الجمهورية ما تزال فتية، مونسينيور. الأمير في وضع صعب لكن صحته جيدة. وجودكم سيخفف عنه المتاعب الكثيرة.

– في رأسي أن أبقى معه خمسة أيام، أتمنى أن يقبل بي.

– أعتقد أنه سيسعد بوجودك. مونسنيور، ستزور الشخصية الاستثنائية، ولن تندم على مشقة السفر التي بذلتها لزيارته. عرفت عبد القادر في أيام عزه وقت كانت الجزائر كلها تحت سطوة سلطانه وقوانينه، ستجده اليوم أكبر وأكثر إدهاشا في نقاشاته، لا يطلب الشيء الكثير من الدنيا ولا يتشكى أبدا ويجد الأعذار حتى لخصومه في الميدان ولا يسمح لأحد بأن يمسهم بسوء.

– ما قام به تجاه الآخرين لا يمكن أن يقوم به إلا رجل عظيم.

– ستجده ساكنا في خلوته، يعذر حتى الذين تسببوا في عذابه الكبير، مسلمين كانوا أم مسيحيين. ويعزي كل ذلك إلى الظروف القاسية التي تتسلط فجأة على الأفراد والجماعات. بزيارتكم لهذا الرجل النبيل والاستثنائي الشخصية ستضيفون عملا إنسانيا جديدا إلى ما زخرت به حياتكم.

– يا كولونيل، أنا لم أقم إلا بواجبي أمام الآخرين لا أكثر.

– أملا أن تجد بلادنا حلا يرضي الجميع، الأمير يعرف أنه انتهى عسكريا ولكنه يريد أن يظل عمله شاهدا على فعله المقاوم الجدير بالرجال العظماء، كان بإمكانه أن يترك كل شيء وينجو بجلده، ولكنه لم يفعل. تحمل مضايقات سلطان المغرب وحصار القبائل والوديان المتدفقة قبل أن يحصل على الضمانات التي طلبها والتي لم نحترمها. يجب أن نملك الجرأة لقول كل هذا.

شعر مونسينيور ديبوش بامتعاض كبير قبل أن يدخل إلى الدهليز الضيق المؤدي إلى الحجرات التي يحتجز فيها الأمير وعائلته، المليئة برائحة الرطوبة والعفن الذي يشبه الرائحة التي تخلفها الفئران عندما تعبر مكانا تاركة وراءها شعرها ورائحة بولها القوية التي تجرح خياشيم الأنف بحدة.

عندما تجاوز العتبة، رأى صفاء خاصا يشبه صفاء الإنسان المقهور والمنكسر. انتابه إحساس يشبه الإحساس الذي يخترق صمت الميت وهو يرتعش في مواجهة شيء حتمي لا سلطان له عليه.

عندما دخل عليه، أشرق وجه الأمير وصار صافيا فجأة. من أين يأتيه كل ذلك النور، تساءل مونسنيور وهو يحاول أن يفتش عن الغيمة التي كانت تتخفى وراء ابتسامات الأمير الهاربة ووقاره المتجلي عميقا.

الأمير عندما عرف بمجيء ضيفه، وكرمز على احترامه، لبس الجوارب ونعلا جلديا لاستقبال ضيفه. عانقه طويلا قبل أن يسحبه من يديه باتجاه عمق الزاوية، في المكان الذي تعود الأمير أن يجلس فيه.

– أتمنى أن يأتي الخير على يديك، مونسينيور.

قال الأمير وهو يجد صعوبة كبيرة في كتم سعادته الكبيرة.

– أتمنى من كل قلبي أن يسمع الله دعوانا، وهو لا يخيب أبدا طالبيه.

– قلبي يحدثني أن زيارتك هذه حاملة لبشرى خير.

– لا يوجد، للأسف شيء ملموس يمكن أن يفك كربتك، ولكني جئتك بيدين فارغتين وقلب مليء بالخير والدعوات وبرجلين لم تكلا أبدا من الركض بين مكاتب الإدارات لكي يلتفتوا إلى قضيتك..

– لو تعلم يا مونسنيور! فأنا أفضل أن أراك فارغ اليدين ممتلئ القلب على أن أراك مليء اليدين وفارغ القلب. اطمئن، فأنا لا أعني من كلامي إلا الخير الروحي، ما عداه، الله وحده يملك الإجابات عنه.

– أتمنى أن يسمع الله دعواك، فأنا مثلك، لا أتمنى إلا ذلك.

– كل هذا لا يمنع الإنسان من أن يبث شكواه ومظالمه ولكن بهدوء وسكينة، بصدق وأمان بحسب مقامات الناس الذين يحاوروننا. كم أشتهي أن أحدثك عن كل ما يجمعنا. بدأت أقرأ كتابكم، الإنجيل. وفي فترة إقامتك بجانبي، أتمنى أن تسمح لي بمساءلتك عن بعض القضايا الغامضة. لم تتح لي الحروب والتنقلات المستمرة إلا قراءة شذرات صغيرة هنا وهناك، لكن هذه المرة أنا مصمم على قراءته كاملا، وفهمه إن أمكن. سادتنا القدماء فعلوا مثل هذا الأمر بدون أن يختل إيمانهم.

– الإيمان في القلب، وما في القلب لا يعلمه إلا الله. أنا مستعد من كل قلبي لأسئلتك.

– متيقن أن قلبك لن يتوقف عن فعل الخير. حدثني إذن كأخ ولا تقلق من أخطائي، فالنية الطيبة هي سيدة السؤال والمقصد.

– لك كل المحبة التي تقربنا من بعض. حتى ولو اختلفنا، لتستقر روحانا داخل نفس الحقيقة الإلهية الكبيرة.

كان مونسينيور مندهشا من سماحة الأمير الذي لا شيء كان يجعله يختلف عن كبار الناس الطيبين الذين قضوا العمر في عزلة الرهبان بحثا عن طريق يقربهم أكثر إلى الله. كانت حيطان القلعة فارغة من كل شيء وباردة، فيها شيء من الموت الذي رآه مونسينيور ديبوش يتسلق الحجارة كالثعبان.

الأمير كان يخاف الصمت على الرغم من حبه للتأمل. التفت نحو ضيفه:

– قرأت في قصصكم القديم: أن مسافرا ذهب ليزور أحد أصدقائه المحزونين، التقى في طريقه ملاكا، سأله هذا الأخير، إلى أين أنت ذاهب؟ فرد عليه الرجل وهو يسابق الملاك: سأزور صديقا في حاجة ماسة إلي. فرد الملاك: وماذا تنتظر منه. هل هو غني أو صاحب جاه وسلطان؟ فأجاب الرجل: لا. هو في حاجة إلى مساعدتي، وسأمنحه كل ما أملكه وأستطيعه من خير وود ومساعدة. فختم الملاك: واصل طريقك، فكل خطواتك ستحسب لك. وكل كلماتك ستلقى جزاءها.

– أنت تعرف يا سيدي أنها درس رمزي، يقصد من ورائه التفاني في حب الآخرين. القصص أحيانا لا تهم بقدر ما تهم مؤدياتها والاعتبارات التي تخلفها.

– سعيد أن أسمع مثل هذا الكلام منك.

في المساء، قبل أن ينسحب مونسينيور للنوم والخلود للراحة من متاعب السفر كان ممتلئا بالوجه الذي رآه لأول مرة ولكنه كأنما رآه منذ سنوات كثيرة. تحادثا طويلا عن اتفاقية السجناء وطيبة الأمير وعن المرأة التي جاءته تطلب من مونسينيور إنقاذ زوجها من محنة الموت المؤكد.

الخمسة أيام التي عاشاها مع بعضهما بعض، فتحت لهما شهية الحوار.

قال مونسنيور ديبوش:

– لا أدري من أين جاءني كل هذا ولكني أحبك أكثر مما يمكنك أن تتصور. لك في قلبي مكان واسع وفي ديني متسع لا يفنى ولا يموت.

– روحك أنت غالية علي، ومستعد أن أمنح دمي لإنقاذها. امنحني من وقتك قليلا لأتعرف على دينك وإذا اقتنعت به، سرت نحوه.

اندهش مونسينيور ديبوش من كلام الأمير. فقد شعر كأن شيئا كان يعتمل في داخله. منذ أن فاوضه في السجناء تأكد له أن هذا الرجل لو امتلكته الكنيسة في صفها لتحول إلى قوة كبيرة لمواجهة كل الخيبات والانتكاسات.

طلب من مونسنيور أن يساعده للحصول على كتب متخصصة في الدين وإلى كاهن معرب يشرح له تفاصيل المسيحية في صفائها الأول.

– وجود هذا الكاهن بجانبي يجعلني لا أرجئ الأسئلة الحيوية. سأتركه معك الوقت الذي تشتهي فهو رهن تصرفك.

في تلك اللحظة رأى مونسنيور ديبوش الأمير وهو يركب بصحبته القطار المتجه إلى روما ليتلقى التعميد من يدي البابا الأكبر. فكل النقاشات التي دارت بينهما كانت معطرة بآمال كبيرة وبعطر شرقي تصعب مقاومته.

في اليوم الأخير أكد مونسنيور للأمير وهو يشرب شايا من يد لالة زهرة أم الأمير:

– أنا متأكد أن سجنك لن يطول أكثر.

– لا أدري. بعد كل ما حدث لست متأكدا. لقد ذهب الملك وأبناءه ومعه انتفت المعاهدات التي قطعها الرجال على أنفسهم. لقد قلت هذا للكولونيل أوجين دوما: سلطان حرك الدنيا ولم يقعدها، عقد معاهدات مع ملوك كثيرين على هذه الأرض، يسترشد القريب والبعيد وبتجربته، ثلاثة أيام كانت كافية لقلب سلطانه ، هذه الأرض بنت كلب وخادعة. تأكدت أن لا سلطان على هذه الأرض إلا سلطان الله.

– لست أنا من يقول العكس أيها السلطان الكريم.

عندما هم مونسنيور بالمغادرة اقترب منه الأمير:

– قل لكل من تلقاه من القديسين النصرانيين، أن يدعوا لي لكي يغمرني الله بنوره ويفك كربتي وأسري.

– سأفعل.

عانقه طويلا ثم خرج مونسنيور وقلبه ممتلئ بنور غريب ظل يشع في أعماقه.

19 Le colonel Eugène Daumas

-٢-

كانت الشمعات قد بدأت تحترق الواحدة بعد الأخرى.

تنفس مونسينيور ديبوش عميقا وهو يجلس في الحجرة المواجهة للحديقة. شعر بالبرودة. كانت رياح الخريف في أوج أنينها. وكانت شجرة اللوز التي تعرت من كل شيء قد انحنت كثيرا أكثر مما يتحمله جذعها النحيل. مسحت الريح والليل كل ظلال الأشجار التي كثيرا ما تتسلق الحائط كلما تسربت أشعة القمر التي تتوغل من وراء النوافذ القديمة التي تنفتح على ساحة البيت. حتى التينة الخشنة ازدادت قصرا أمام شطحات شجرة اللوز وظلالها الكبيرة.

في البيت لم ير شيئا إلا وجه الأمير وهو يرتعش تحت أشعة الشمعة اليتيمة التي كانت ترقص على الطاولة التي تعود أن يأكل عليها وعندما ينتهي، يحولها إلى مكتب للكتابة. فجأة شعر ببرودة تعبر جسده بقوة ذكرته ببرودة تنام بين تجاويف الذاكرة. وضع الغطاء الصوفي على ظهره. تدثر قليلا. حاول أن يغمض عينيه. بانت له ليلة ٢١ مايو ١٨٤١ أكثر قربا من كأس الماء التي حاول أن يصرف بها جفاف حلقه. امرأة لم تكن كسائر النساء. كأنها خرجت من مغارة بدائية. كانت ترتعش كالورقة الضائعة. تحاول جاهدة أن توقف الدمعات التي تلألأت تحت ضوء القنديل الزيتي الباهت. في يدها صبي قد مال وجهه نحو زرقة تشبه زرقة الموت. نصف جسدها العلوي كان عاريا. تذكر أنه قام من مكانه مثل المذعور. نزع الغطاء الذي كان يتدلى من على كتفيه ورأسه ثم وضعه على الصبي وغطى بجزئه الآخر صدر المرأة. أرادت أن تتكلم. وضع يده على شفتيها وتمتم بهدوء:

– لا تعتذري. ارتاحي أولا، أنت في بيتك. أعرف أن مصابك كبير وإلا ما قطعت كل هذه المسافات بهذه الوضعية القاسية ووسط هذه العواصف.

– نعم يا مونسينيور. أنا زوجة ماسو[20] نائب المتصرف المالي العسكري الذي سجن بالقرب من الدويرة. إني خائفة على حياته من عناد بوجو[21] الذي رفض أي حوار مع عبد القادر، فهو سجين لدى العرب. وأخشى أن يقتل زوجي وهو لم ير ابنته التي ولدت بعده. زوجي لم يكن محاربا فهو مجرد متصرف مالي. جئت نحو الله، لأن كل سبل البشر انسدت في وجهي.

– ما سمعته عن هذا الأمير يؤهله لرتبة قائد وليس حرامي ولا أعتقد أنه سيقتل زوجك ما دام سجينا لديه. الذين هربوا أو الذين أطلق سراحهم يؤكدون على قوام أخلاقه العالية.

– الأخبار يا سيدي تقول أن العرب يقتلون سجناءهم ويبعثون آذانهم ورؤوسهم لمسؤوليهم لكي ينالوا حقوقهم بحسب عدد الرؤوس والآذان التي يقطعونها.

– في الأمر بعض المبالغة. هوني على نفسك وسأرى ما يمكن فعله. سأوجه له رسالة للتفاوض على زوجك وسأخبر بوجو عما يمكن فعله، ربما استطعت تغيير تعنته.

وضعها في فراشه وغطاها بالغطاءين الموجودين على الطاولة القديمة، ثم انسحب يكتب رسالة للأمير. أغمض عينيه طويلا قبل أن ينسحب من ذهنه صدرها العاري ويستحضر جمله الشحيحة. التفت وراءه، كانت تغط في نوم عميق، هي وابنها الذي التوى بين يديها كقطعة قماش بالية مرت عليها أياد كثيرة، ثم عاد إلى قلمه تحت قصف الرعد والبروق التي كانت تشق سماء العاصمة بعنف كبير:

سيدي السلطان... أنت لا تعرفني ولكني رجل مؤمن متفان في خدمة الله مثلك تماما. لو كنت أملك القوة للركوب على ظهر حصان الآن، لجئتك للتو ولن تثني عزمي لا دكنة الظلمة ولا هدير الرياح. وسأقف عند مدخل خيمتك وأقول لك بصوت لن يخيب إذا كان ظني فيك صادقا: أعد لي أخي الذي وقع أسيرا بين أيديكم. قد لا أستطيع المجيء إليك ولكن أقبل مني من ينوب عني في هذه المهمة محملا برسالة مني أتمنى أن يباركها الله. فأنا لا أملك لا ذهبا ولا فضة ولا أستطيع أن أمنحك بالمقابل إلا صلوات روح صادقة واعتراف العائلة التي أكاتبكم باسمها، بخيرك الكبير...

شعر مونسينيور بقلبه ينكمش. ذلك الزمن صار الآن بعيدا ومع ذلك ما يزال ههنا أمامه مثل المرآة العاكسة لحياة انسحبت بسرعة كبيرة ولكن علاماتها ما تزال متبدية على سطح الروح. يدرك جيدا أنه لم يخطئ في الأمير. الإجابة لم تطل كثيرا. قلب أوراقه واحدة واحدة، قفز في وجهه رد الأمير على الرسالة. رسالة عرفها من انكسارات حروفها واعوجاجها كالثعابين والترجمة الملصقة في ظهرها:

مونسينيور أنطوان-أدولف ديبوش... لقد بلغني مكتوبك وفهمت القصد ولم يفاجئني مطلقا في سخائه وطيبته لما سمعته عنكم. ومع ذلك اعذرني أن أسجل ملاحظتي لك بوصفك خادما لله وصديقا للإنسان: كان من واجبك أن تطلب مني إطلاق سراح كل المساجين المسيحيين الذين حبسناهم منذ عودة الحرب بعد فسخ معاهدة تافنة وليس سجينا واحدا، كائنا من يكون. وكان لفعلك هذا أن يزداد عظمة لو مس كذلك السجناء المسلمين الذين ينطفئون في سجونكم. أحب لأخيك ما تحبه لنفسك...

شعر مونسينيور ديبوش بامتعاض في بطنه. كيف غابت عنه تلك الأفكار وهو يفتح قلبه للأمير؟ عاودته الصور القديمة مثقلة بمرضه الذي لم يعد يسعفه كثيرا لبذل مجهودات كبيرة. امتلأت عيناه بالدموع. رأى سجن قلعة القصبة الذي امتلأ بالسجناء العرب المكدسين، رجالا ونساء، شبه عراة، تتسلق على صدورهم كائنات صغيرة مثل الدود المرتخي. تمتم وهو يمر بين وجوههم المندهشة فيه: كيف يستقيم الكلام بين صرخات وبكاء هذه المئات من الوجوه المنكسرة من النساء والأطفال التي تتدافع نحونا بدون أن تفهم لغتنا؟ إحداهن لم تتجاوز الخامسة عشر من سنها، أكلتها الحمى، تحاول أن تطعم ابنها من ثدي جاف، وهي لا تجد ما تأكله. لن أنزل من هذه الهضبة إلا إذا تأكدت بضمان إطلاق سراحهم.

يومها، طلب مونسينيور، أثناء صلواته بكتدرائية سانت-فيليب[22]، من كل ذوي البر والإحسان، مساعدة السجناء بالألبسة والأغطية ومكن الجميع من تقديم مساعداتهم لقس سانت-فيليب أو لأخوات سانت-جوزيف أو لرئيسة الجمعية الخيرية للجزائر العاصمة، قبل أن يقنع السلطات العسكرية بضرورة إطلاق سراح السجناء العرب في مضيق موزايا الذي حدد كمكان لتبادل الأسرى.

وقع كلمات مونسينيور كان قويا في نفسية الأمير، فكلف خليفته سيدي محمد بن علال للإشراف على مبادلة السجناء في إحدى ضيعات موزايا. استطاع مائة وثلاثون أسيرا عربيا، الذين رافقوا مونسينيور باتجاه الضيعة، أن يجدوا حريتهم. كادت العملية أن تنتهي إلى مجزرة بسبب سوء تفاهم صغير لولا حكمة ابن علال ومونسينيور. فانتهى الخلاف في عربة مونسينيور الذي تحاور طويلا مع ابن علال الذي ظل مشدودا إلى طيبة هذا الأخير الذي قال له بعد أن أهداه بندولة بخيطين:

– ليس أهم من وجهك وقلبك الطيب. قل للأمير بأني أحفظ له هذا الخير ما دمت حيا. وأتمنى أن يمنحني الله مزيدا من القوة لإشاعة المحبة بين الناس.

على مشارف دالي إبراهيم ركضت أم أحد السجناء صوب ابنها الذي لم تتأكد منه حقيقة إلا عندما عرفت أن وراء الرجل الذي كان يرتدي لباسا عربيا كان يتخبأ ابنها. عانقته ثم قبلت بحرارة يد مونسينيور ديبوش الذي دعاهما للركوب في سيارته.

لم يستطع مونسينيور أن يكتم سعادته، عندما تذكر سخاء الأمير الذي بعث له، من أجل شكره على مساعدته للسجناء العرب، بالعديد من الزرابي التي أثث بها دار اليتامى سانت-سيبريان[23] وبأربعين معزة مالطية ترعاها امرأة وطفلة صغيرة: «**بهذه المعاز ذات الضروع المدلاة يمكنك إطعام الأطفال الذين تبنيتهم والذين فقدوا أمهاتهم.**»

– الحرب أحيانا تعمي الأبصار، كل الأبصار يا جون.

التفت مونسينيور وراءه، متناسيا قليلا شجرة اللوز التي كانت ما تزال تقاوم رياح الخريف في الحديقة.

– الحرب شر مهما كانت المبررات التي تتخفى من ورائها.

– وماذا يمكننا أن نفعل يا سيدي سوى مقاومة هذه الحالة من العمى.

– أرأيت ماذا فعل هذا الرجل من أجل الجميع. يجب أن يخرج من هذا السجن المفروض عليه في هذا القصر المفرغ من كل حياة. لقد وعدوه وما عليهم إلا أن يفوا بوعودهم. الأمر لا يتعلق بشرف الأفراد ولكن بشرف أمة بكاملها.

– ولكن يا سيدي هون على نفسك قليلا. أنا متأكد من أن الحكومة الجديدة ستجد حلا يرضي الجميع. هذا العناء يضر بصحتك.

– أية صحة يا جون عندما يموت الآخرون بسبب ثقة وضعوها في قادتنا ثم جاء من يقرر غير ذلك. لا. يجب أن يجد الأمير الطريق الذي يريد أن يسلكه نحو الشرق.

ثم صوب القنديل نحوه بعد أن نزع الجزء العلوي من الفتيلة التي تكاثر دخانها. أعاد ترتيب كل الأوراق التي كانت أمامه لإعادة قراءتها واحدة واحدة. شعر كأن فصل الخريف الذي يظهر بتجليات رياحه وقسوتها هو دعوة ضامرة للعودة إلى خفايا الذات والكتابة. تمتم قليلا قبل أن ينكفئ على أوراقه:

«لم يبق أمامي إلا هذا الحل وإلا فلا معنى لما نقوم به. أمامي نابليون وأنا على يقين أنه سيقبل أن يتدخل في صالح هذا الرجل. المجلس عاجز عن اتخاذ قرار صارم ونهائي. غيزو، رئيس المجلس، دار حول نفسه ثم أنهى الدورة بدون قرار حقيقي. سأكتب لنابليون وأظهر له من هو هذا الرجل.»



20 Massot, sous-intendant militaire
21 Bugeaud
22 La cathédrale de Saint-Philippe
23 Saint-Cyprien

-٣-

الرياح الباردة جمدت كل شيء وضيقت كل المساحات. سنة أخرى تمر بسرعة.

انهمك مونسينيور طويلا في عمق الرسائل والوثائق ولم يمنعه ضيق التنفس وآلام الرقبة من الاندفان في أعماقها لفترات طويلة. السنة الجديدة جاءت كما تجيء الأيام العادية، لا تحمل أي جديد حاملة في أثرها كل الارتباكات التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الخوف والخيبة. لا شيء في الأفق، وما كان يبدو مجرد سوء تفاهم صار حقيقة ثابتة وتيقن الأمير أن الزمن الفاصل بينه وبين حريته زاد اتساعا وقسوة. لا شيء أمامه إلا التأمل والتفكير في مراسلة الذين وعدوه خيرا بمناسبة حلول السنة الجديدة.

فتح مونسنيور ديبوش الرسالة التي تلقاها بمناسبة رأس السنة. كانت مندفنة بين الوثائق الكثيرة. تأملها طويلا قبل أن يعيد قراءتها ويحاول من جديد فك سر الكبرياء ورعشة الحزن التي كانت تتخبأ بين الحروف:

باسم الله الرحمن الرحيم

من الخادم البسيط، لسيد الأكوان الذي لا يدخر جهدا للخير، ولمساعدة الآخرين. الذي يطلب التضحية بالنفس والنفيس والذي لا ترد ودائعه. ليباركنا بمغفرته ورحمته لنا ولكل عباده. سيدي ديبوش، السلام عليك وليسدد الله كل خطواتك وخطوات من تحب. في بداية هذه السنة نرجو من الله تعالى أن يعمم الخير وأن يرضى على كل من نحب وكل من يحبنا. ويلبي دعواتنا جميعا. نتمنى أن يلهمك الله بعض الوقت لتعودنا وتزورنا. نرجوك أن لا تتأخر. حضورك بيننا يمنحنا كل الرضا والسعادة كما تعلم ذلك جيدا. وإذا لم تستطع سنعلم أنها إرادة الله الذي نجله ونحبه بصدق وإليه نوكل المصائر. ولكننا لا نتوقف عن تمني مجيئك إلينا. وجودك بيننا سيجعل أيامنا سعيدة، رفاقي، اخوتي وأنا أكثر منهم جميعا. كلنا نتمنى رؤيتك قريبا ونرجوك أن تأتينا في أقرب وقت إذا سمحت لك الظروف.

وداعا يا سيدي الأعظم، من عبد القادر بن محي الدين.

اليوم ٢٤ من صفر من سنة ١٢٦٥ هجرية.

كلما تأمل هذه الرسالة شعر بالتقصير تجاه الأمير وهو الذي قطع الكثير من أعماله من أجل التفاني في خدمته. فقد رأى في الخريف الماضي نساءه وأطفاله وتحسس قوة البرد الذي كان يدخل من شقوق القصر التي لم ترمم.

البرد والصقيع وغشاوة الضباب التي تملأ الأمكنة وساحة البيت. دور مونسينيور القلم بين يديه كعادته عندما تهرب منه العبارة. وضع كفه على جبهته قليلا بحثا عن شيء ما لم يكن قادرا على تحديده، فرأى الأمير طفلا يركض على حافة وادي الحمام ثم وهو يقطع البحار والقفار مع والده باتجاه القيام بمناسك الحج وزيارة علماء القاهرة والتوقف في مقام سيدي عبد القادر الجيلاني ببغداد، ودمشق والبقاء قليلا بمقام ابن عربي الذين كان مريدوه يحلقون بقبره وينتظرون بركاته ثم العودة وركوب الأحصنة ومتاعب السلطان في سنواته الأولى. لم يكن يعرف أن هذه السنوات ستسرق منه كتبه وأشواقه وتدخله في بطولة لم يحضر نفسه لها، هو الأكثر رهافة من كل اخوته.

– مونسينيور....

نبهته قليلا في ساعة متأخرة من الليل. كنت أريد أن أسأله إذا كان يريد زهورات. لم يرد علي، لم يلتفت نحوي كعادته وهو يقول: أنت تعرف يا جون ماذا أريد في مثل هذه الحالات، فلماذا تسألني؟

– لأتأكد يا سيدي،

أقولها بدوري من باب العادة.

– كل المحيط مغشوش أو خائف على مصالحه ولم يبق أمامي إلا الرئيس وكل الذين سألتهم أكدوا لي أن نابليون يعرف جيدا ما معنى أن يعيش الإنسان منفيا ويدرك بعمق آلام الإنسان وهو يواجه الكذبة القاسية مثلما فعل الإنجليز مع نابليون عندما قادوه سجينا على متن سفينة كان يظنها مركبة النجاة. التاريخ يا عزيزي جون يدرك أصحابه إن آجلا أو عاجلا. ولهذا يجب أن أكاتب نابليون ليطلق سراح الأمير وأن أضع الحقيقة بين يديه مجردة من أي كذب أو زيف.

– ولم لا يا سيدي. كل الناس يقولون أنه متعاطف مع الأمير ولكن المجلس هو المشكل الكبير الذي لا يسهل المهمة.

– لم أجد بعد الصيغة المناسبة. ربما سأكتبها في شكل مرافعة ولهذا علي أن أعرف عن الأمير أكثر مما أعرفه عنه اليوم. هناك عقد كثيرة لا حل لها إلا المعرفة الدقيقة للدخول إلى قلب لويس-نابليون بونابرت.

سألني، بالكاد سمعته:

– هل تعرف عام الجراد؟

عندما أجبته بلا، لم ينتبه إلى إجابتي ولكني رأيت بأم عيني كيف غرق ليلتها مونسنيور ديبوش في مداده. كان على حافة البدايات...

-٤-

١٨٣٢. عام الجراد الأصفر. هكذا يسميه العارفون ورجال البلاد والصالحون وزوار الزاوية القادرية الآتون من بعيد. منذ الصباح، تبدأ فلول الجراد الأولى تسقط على سهل اغريس مشكلة مظلة سوداء على الحقول والمزارع. حتى حوافي وادي الحمّام الساخن تصير صفراء من كثرة الجراد العالق بالأطراف وبشجيرات الديس والمارمان التي تكسو أطراف الوادي. حتى الرياح الجنوبية التي هبت ليلة البارحة لم تجلب معها إلا مزيدا من الرمال والأتربة وأسرابا لا تحد من الجراد.

لا شيء في الأفق، تمتم الرجل المسن الذي كان يقي رأسه بمظل قديم يغطي نصف وجهه، وهو يضع كفه على عينيه اتقاء لشر الأشعة الحارقة. سنة أخرى تمر من الحر والأمراض والجفاف وتشقق الأرض ولا شيء في الأفق سوى عواء الذئاب الذي لم يعد يتوقف ليلا وجزءا كبيرا من الصباح، والموت جوعا أو بالأمراض التي كثيرا ما تعجل بموت المنهكين، وأزيز الحشرات عندما يشتد صهد النهار، معلنا عن صيف آخر لا خير فيه سوى المزيد من البؤس واليأس.

لا حياة في السهل إلا بعض الحيوانات وهي تبحث عن الظل درءا للحر والعطش أو بعض الوجوه المحروقة التي تسرق عند شجرة الخروب الوحيدة بعض الرطوبة وتتأمل من بعيد أسراب الجراد بيأس وهي تستعد لغزو ما تبقى من أماكن تدب فيها الحياة.

هو عام الجراد الأصفر، عام الموت والخراب حيث جف الماء ونضبت العيون وكثر القتال والحروب بين الأشقاء حول أتفه الأشياء والأسباب. عندما انكشحت الأدخنة المتصاعدة في سهل اغريس بسبب رياح الجنوب، تجلت حيطان المسجد الوحيد في المنطقة حيث تجمع السكان بعد خروجهم من أداء الصلاة وهم يلوحون بأياديهم إلى السماء ويصرخون بأعالي أصواتهم والزبد يتطاير من بين شفاههم اليابسة:

– الموت والسحق للخونة. الموت للقاضي أحمد بن طاهر الذي باع دينه وعرضه ووطنه للكفار وتعامل مع النصرانيين الغزاة. المشنقة. الله أكبر. الله أكبر...

لم يرفع الشيخ محي الدين يده ولا هز رأسه، نحو الحشود ولا نحو الرجل الذي كان ينتظر شد الحبل حول عنق المتهم بعد أن وثقت يداه على ظهره. كانت الأصوات تتكاثر وتتداخل فيما بينها قبل أن تتجلى للشيخ محي الدين حالة الصفاء ويرفع رأسه نحو السماء متمتما: اللهم أعني على إعلاء كلمة الحق. اختلطت تمتماته بكلمات القاضي أحمد بن طاهر الذي ظل يتساءل في عزلة:

– إذا كانت هذه هي إرادة الله، فليكن. لقد علمت ابنك يا الشيخ محي الدين حب هذا الدين وهذه البلاد. تحاكمونني على جرم ارتكبته تحت الضغط العسكري الفرنسي وكنت مكرها وأنا أكفر عن ذنبي بطلب الصفح. لم تكن في حاجة لاختطافي، كان يمكنك أن تطلبني وأجيئك بدون تردد. فأنت قدوتنا في الحق.

– لقد حذرناك وطلبناك ولكنك تماديت. أنت تعرف أننا منعنا التعامل مع الفرنسيين وحرمنا بيع المواشي والبغال والخيول والتبن والعلف لهم.

ردد الشيخ محي الدين.

– لا علم لي بذلك. لابد أن يكون هناك سوء تفاهم يا سيدي. أنا تاجر وعندما رفضت البيع للنصرانيين، دخلوا المخزن ولم يطلبوا إذنا مني أبدا.

– سمعت هذا الكلام. أنت تعرف أن أحكام الله نافذة.

– عندما تكون على حق، فأين هو الحق هنا؟

– ما قاله قضاة اغريس فيك لا شك فيه.

– قضاة اغريس حكموا على حالة افترضوها. لم يسمح لي بالدفاع عن نفسي ولا بمساجلتهم. دمي في عنقك يا شيخ محي الدين.

ثم هز الشيخ محي الدين رأسه هذه المرة بدون تردد نحو الرجل البدين الذي كان ينتظر إشارته حيث لوح بيده اليسرى، إيذانا ببدء تنفيذ حكم الإعدام في حق أحمد بن طاهر، قاضي أرزيو الذي ارتعدت فرائسه أكثر عندما رأى يد الشيخ محي الدين اليمنى تلوح بالمصحف. شهد ثم أغمض عينيه.

– اللهم اغفر لي ولهم يا رب، إنك سميع مجيب.

فجأة نزل الصمت مثل ضربة سيف وانتهت الصرخات وتحجرت العيون نحو الرجل البدين المكلف بتنفيذ الإعدام. لم يسمع شيء إلا صوت الحبل وهو ينعقد وينشدّ على رقبة قاضي أَرْزِيوْ بقوة والجسد الثقيل الذي كان يتدحرج على شجرة الزيتون الوحيدة، المقاومة للزمن والحر والأثقال. انتفض الشيخ محي الدين في مكانه كمن يريد أن يصرخ ولكنه لم يستطع أن يتفوه بأية كلمة. كان كل شيء قد انتهى. تمايل الجسد الثقيل قليلا قبل أن يستقر على وضع ثابت شيئا فشيئا. كانت السماء قد امتلأت بالغربان والجوارح القادمة من الصحراء بعد أن سحقها الجوع. تعالت وقوقاتها الآتية من بعيد ثم بدأت تحوم في شكل حلقات ودوائر فوق رأس الجثة التي همدت واستقرت بشكل عمودي. عندما بدأت الكواسر أولى هجوماتها، كان صوت حوافر الخيل قد ملأ فجأة المكان، فهربت الكواسر مؤقتا لتحلق بعيدا عن ساحة الزيتونة والمسجد الصغير، قبل أن تعود للهجوم مرة أخرى. بدأ الحاضرون يهتفون من جديد بحياة عبد القادر القادم من ساحة الحرب ونسوا الجثة تماما. حتى الرجل البدين الذي كان ينش الكواسر التي عادت بكثافة، التحق بالجماعة الضخمة التي ظلت طويلا تهتف بدون توقف، وسط الغبار المتصاعد من تحت حوافر الخيل:

– سيدي عبد القادر، سيدي عبد القادر، الله ينصر سلطان الحق.

أحنى القيم الذي وثق الإعدام والحكم في كراسته، رأسه مائلا باتجاه الشيخ محي الدين وتمتم في أذنه وهو يحاول أن يجمع كلماته:

– لا شيء يا سيدي... يبدو أن سيدي عبد القادر قد عاد من غزوته ضد النصارى مظفرا بالخير والنصر والخير.

– كنت أتمنى أن أعفيه من رؤية هذا المشهد ولكن ليكن، هذا سيعجل من بيعته. أتمنى أن يكونوا قد استعادوا وهران التي سلمها الباي لأسياده وقبل بمنفى الإسكندرية. ربما فعل خيرا في نفسه. أحسن لنا وله وإلا لكان مصيره مشابها لمصير قاضي أرزيو. لم يعد قادرا على حماية البلاد من غزو الأعداء. سيرتد علينا الكثيرون ويقولون لماذا لم تحموه عندما طلب الحماية منكم، كانوا سيأكلون رأسه

ويحسبون خيانته علينا.
– سيدي عبد القادر وخيالته سيسترجعون وهران في أقل من لمح البصر.
– عبد القادر واحد من هذا الشباب الغاضب، كم تمنى أن يتفرغ لكتبه ومعارفه. لكن عندما تحترق البلاد يصير العلم جبنا والتهاون خيانة.
– حاشا، سيدي عبد القادر ليس من هذا الصنف. رجل لغته السيف وكلام الله.
عندما ارتفعت الأعلام والخرق الملونة والزغاريد عاليا، كانت جثة القاضي أحمد بن الطاهر قد غطتها الكواسر وحلقت حولها الكلاب التي بدأت تقترب منها وتتشممها. عندما سار عبد القادر باتجاه الجثة وقف والده بينه وبينها. كان الرجل البدين قد بدأ في فك الحبل عن عنقها، وتركها تسقط على الأرض قليلا قبل أن يساعد المرأة الملحفة والصامتة على وضعها على ظهر الحمار. عندما أراد أن يشدها بنفس الحبل الذي شُنِقت به، مدت المرأة يدها وتمتمت:
– خلوا الحبل عندكم، ينفعكم باش تشنقوا به واحد آخر. الله يكثر خيركم.
ثم انسحبت بصمت وسط الحر ورائحة الجراد. أراد عبد القادر أن يتبعها بحصانه ويستفسر عن الأمر لكن والده شد لازمة الحصان ودفع به بهدوء إلى الوراء.
– لا داعي. إنها زوجة القاضي أحمد بن الطاهر، قاضي أرزيو. رفضت أن يدفن في سهل اغريس، فلم أمانع. قلت لها هنا أو هناك فأرض الله واسعة. قالت: أرض الله ضاقت ولم تعد واسعة. اسمحوا لي أن أذهب به نحو تربة أكثر رحمة. هذا ما قالته زوجة القاضي أحمد بن الطاهر.
– ما يدهشني في هذه المرأة هو قطعها لكل هذا القفر لإنقاذ زوجها فعادت بجثة.
– كانت تريد أن تتقرب منك لإقناعك ولكنها لم تستطع الوصول إليك.
– الله يغفر لنا جميعا ويسدد خطانا إذا زاغت أرجلنا عن المسلك القويم.
ثم التفت الشيخ محي الدين نحو ابنه الذي ظل متسمرا فوق حصانه، على مشهد المرأة وهي تدفع بدابتها في سهل اغريس.
رفع عبد القادر لحاف برنسه ومسح عينيه.
– تبكي يا ابني؟
– لا، أمسح الغبار من على وجهي. كان الله يرحمه، أستاذي ومرجعي في الفقه. خسارة كبيرة. ألم يكن هناك حل شرعي أقل سوءا من الإعدام؟
– المرجع عندما يخطئ، يخطئ معه الغير. عقوبته غير مغتفرة.
– الله رحيم. لا توجد فقط حلول الإعدام، التعزير مثلا يمكن أن يعلم الناس.
– عزرناه وأنت تعرف ذلك، أخفناه ولكنه استمر في تعاملاته مع القوات الغازية التي لم يكن أمامنا من أجل مقاومتها إلا محاصرتها لإجبارها على المغادرة.
– كان أستاذي يا الله ...
ثم وضع يده على فمه ونظر إلى السماء وأغمض عينيه طويلا.
عندما خلت الساحة، كانت الكواسر تحلق فوقها، مشكلة هالة على ظهر الدابة التي كانت تبدو عليها مظاهر الإرهاق والتعب والعطش. لم يبق أحد بالساحة إلا العجوز خناثة التي كانت تنش الطيور كعادتها بعد كل إعدام وتكنس المكان وترش قليلا من الماء المعطر برائحة القار وعود النوار لدفن رائحة الموت والدم. العسل الكحلاء تمحو بقايا الموت كما تقول دائما العجوز خناثة عندما تُسأل عن فعلها.
في الجهة المقابلة للزيتونة حيث تم نصب خيمة كبيرة، تفطنت النساء اللواتي يحضرن الدواء لأحصنة عبد القادر بن محي الدين وجيشه، أخرجن رؤوسهن فجأة من أكوام التبن والمارمان والخزامى والحلحال ورائحة العرعار المحروق لغلق جروح الخيول العائدة من الحروب. تعالت زغاريدهم عاليا وتجارين نحو الخيول لتحسس جراحاتها. ترجل عبد القادر تاركا حصانه للسايس وللمرأة التي كانت تتحسس كافة نقاط جسده وصدره. سلم على رأس والده وقبل يده واعتذر عما صدر منه ثم طلب أن ينسحب نحو الخيمة بينما بقيت نظرته مرتشقة على الزيتونة والدابة التي غابت في أفق سهل اغريس الجاف، مغطاة بأسراب الكواسر والغربان ومتبوعة بعدد من الكلاب الضالة.

–٥–

في الخيمة التحق الشيخ محي الدين وقيمه وبعض القادة العائدين من غزوة وهران. كان الصمت والحر وكان الحديث محدودا. تمتم الشيخ محي الدين وهو يلتفت نحو ابنه:
– الحاكم يعطي العبرة، قاضي أرزيو خان فكان عليه أن يدفع الثمن. لو كان ابني عبد القادر هو من فعل ذلك، ما عتقته. لا حق للحاكم أن يلعب بسلطان ليس ملكه ولكنه ملك للذين وثقوا فيه. لو لم أفعل لارتدت كل القبائل ضدنا ولما اعترفت بسلطاننا.
بعد صمت طويل تمتم عبد القادر بكلمات تكاد تكون غير مفهومة:
– يا والدي الكريم، ألم يكن من الأفضل الانتظار قليلا حتى تنجلي كل الملابسات؟ كنت قد بدأت التفاوض مع وجهاء أرزيو وتجار الأسلحة على مائة بندقية وثلاث آلاف طلقة، وكان القاضي موافقا على المساعدة وعلى كل طلباتي. الآن سيتغير كل شيء.
– الحكم واضح وهو حكم الله. الخيانة لا جزاء لها إلا القتل وأي انتظار هو تشكيك في أهليتنا لحماية هذه الأرض.
– لا أدري إذا كان يحق لي في مثل هذه الظروف الصعبة أن أكرر ما قلته من قبل، بأن الله غفور رحيم يا والدي الكريم. وأنت سيد العارفين. ÷ ولكنه شديد العقاب أيضا. يجب أن لا تسمح للخيانة أن تنبت في دارك وأنت في بداية مشوارك. لو تخاذل أخوك البكر لوضعت سكيني في عنقه بيدي، هنا وأمام الجميع. تذكر كلام أستاذك ابن خلدون جيدا، العصبية هي التوفيق بين العشائر بالشعور العضوي. دعني أسألك عما هو مهم وعما فعلتموه في مواجهة النصارى.
اعتدل عبد القادر في مكانه بعد أن شعر بأن والده قد وضع حدا للمناظرة. تربع جيدا بقية الخلفاء الذين صاحبوه في المعركة. أغمض عينيه قليلا حيث غابت كل المشاهد السابقة ولم يبق أمامه إلا ضجيج الحرب والخيالة وهم يلقون بأنفسهم في أتون النار.
– كانت المعركة قاسية وخسرنا العديد من رجالاتنا الميامين. بوبكر الزكري قاوم كثيرا ولم يترك لأعدائه إلا جسدا ممزقا. الحمد لله، فقد دحرناهم باتجاه المدينة. القبائل تشدد من حصارها والأمراض التي تفشت بينهم بدأت تأكلهم والمجاعات تطحن ما تبقى. كانوا يظنون الحرب مجرد نزهة.
بعد أن استمع محي الدين ورجاله إلى تفاصيل التقرير الحربي الذي قدمه القادة والخلفاء وبعض رؤساء القبائل بحماس كبير، أخذ الكلمة في الأخير، فهدأ الضجيج والحديث عن تفاصيل المعارك الأخيرة:
– أنتم تعرفون أنه لا حل لنا اليوم إلا الاتكال على أنفسنا. الأتراك باعوا وهران بالرخيص وحسين الطباخ لم يطلب شيئا إلا النجاة بجلده بعد أن ترك وراءه أمة ممزقة. سلطان المغرب، مولاي عبد الرحمن لم نعد نعثر له على أثر ومراسلاته قلت. مرابطو المنطقة الوهرانية الذين استقبلهم السلطان، والخمسين فارسا وقافلة البغال المحملة بالهدايا التي بعثت بها له لنصرتنا ونصرة دين الله لم تقدم ولم تؤخر في شيء. منذ أن بعث أحد أبنائه على رأس خمسة آلاف فارس وبطاريتي مدفعية وأقام مركز قيادته في تلمسان ورفع الدعاء له ولآل هاشم وشاركت أنا وعبد القادر في هذا المجلس لإخباره بتفاصيل الوضع المستجد، لم نعد نسمع صوته منذ أن انسحب نحو مراكش. انتظرنا أن يساعدنا، فاقترح علينا إلحاق المنطقة الوهرانية بالمملكة الشريفية المراكشية. أشم رائحة الطمع الكبير في كلام أبنائه وقادته.
– هذه حرب طويلة الأمد يا أبي، رد عبد القادر، وتحتاج إلى صبر كبير وما ينتظرنا أكثر قسوة. نحتاج إلى كثير من الحكمة والكثير من التبصر وسننتصر بإذن الله.
– يجب أن تنقى دار الإسلام من الغزاة.
عندما انسحب الأمير نحو مكتبة والده، كانت الرطوبة القادمة من وادي الحمام المجاور قد عمت المكان ورياح الشهلي الذي ينشف الشفاه والألسن، قد توقفت نهائيا. وبدأت الشمس تنزل شيئا فشيئا على سهل اغريس بعد أن غطته بغلالة من الصفرة اللامعة غيبت كل التضاريس التي تنبت على ظهر السهل الواسع.
مد عبد القادر يده نحو مصنف المقدمة لابن خلدون. المخطوطة التي دون على صفحاتها ملاحظاته الكثيرة. جاءته من بلاد المغرب من تاجر وراق رآه مرة واحدة عندما دخل عليه في خيمته لحظة القيلولة ووضعها في حجره وهو يردد: اقرأها وترحم علي أو العني إذا لم تجد فيها ما يشفي الغليل، ثم انسحب ولم يأخذ حتى ثمنها.
تمتم عبد القادر وهو يفتح الكتاب في منتصفه حيث تركه في المرة الأخيرة:
– هل كان ابن خلدون غبيا إلى هذا الحد الذي يعمى فيه بصره وبصيرته؟ لا أعتقد. هناك شيء في المجتمع الذي درسه ما يبرر موقفه.

–٦–

من بعيد، تبدو مدينة معسكر ببناياتها الجيرية غير المنتظمة، كومة من الحجارة ذات ألوان بيضاء وترابية حائلة، تتراص ثم تنفتح مخلفة بين الكومة والكومة فضاءات وهواءات من الخضرة أو التربة الحمراء. تنام على حافة السلسلة الجبلية التي تحيط شمالا بسهل اغريس الذي يمتد على مرمى البصر ووادي تودمان الذي يتبدد عند مخارج المدينة في شكل سواق صغيرة حتى يتضاءل نهائيا لينطفئ داخل الحدائق والمزارع الكثيرة التي تحيط بالمدينة.
منذ الهجمات القديمة على المدينة ومعسكر تطوق نفسها بسور قديم بعرض خمسة أقدام وعلو يصل إلى تسعة أمتار وبحصن مثلث الجوانب في المرتفعات المحيطة بالمدينة، مجهز بثلاثة مدافع من البرونز، تتكئ على عجلات قديمة صارت ملتصقة بالأرضية المثبتة عليها بسبب قلة الاستعمال والصيانة، تحتها قذائف كثيرة صارت تشبه الحجارة في لونها الخارجي، ثم القلعة أو البرج كما يسميه سكان المدينة، والذي يواجه من إحدى جهاته ساحة المدينة ذات الأبواب الثلاثة، الباب الشرقي المحروس بمدفعين، وباب علي الذي ينفتح على طريق تلمسان ووهران والمحروس بثلاثة مدافع وهو الباب الذي تعلق فيه الرؤوس للعبرة وتتم فيه الإعدامات، وأخيرا باب الإنقاذ الذي ينتهي بمنحدرات وادي تودمان، مجهز بمدفعين من جهة الجنوب الغربي للمدينة. خمسة عشر مدفعا تحرس أسوار المدينة. البنايات مبنية بالطين والحجارة والقلة القليلة مشيدة بالآجر.
ثم دار البايلك الواسعة والجميلة التي بناها الحاكم التركي له ولعائلته متأثرا بهندسة دار باي وهران. الجانب التحتي منها، مخصص للاستقبالات، بأعمدة رخامية بيضاء عالية أقرب إلى النموذج الموريسكي القديم والسقف صنع بذوق رفيع، تتوسطه أوان ورسومات أقرب إلى المنمنمات والتلوينات النباتية التي تبتعد عن الرسم التشبيهي. الطابق الأول نزع منه عبد القادر كل ما يحيل إلى الوجاهة الزائفة ليصبح مكانا متواضعا جدا، يستقبل فيه الشيخ محي الدين ضيوفه وزواره الخاصين جدا. لا يوجد بالمدينة إلا مسجد واحد ترتفع مئذنته عاليا في الساحة بالقرب من دار البايلك ومسجد آخر على الأطراف لا تظهر منه إلا مئذنته من بعيد. أربع

جسور صغيرة من الحجارة تربط الضفاف المحيطة بالنهر ذي المياه المتدفقة التي يضيع جزء منها في العيون القريبة والسواقي.
أيام الجمعة والسبت والأحد ينشغل الناس بالسوق في باب علي. سوق متنوعة، تباع فيها أشياء كثيرة. بارود الحرب، جذور النباتات المتسلقة التي تستعمل للتزيين، قشور الرمان لتلوين الجلود بالأصفر واللون الأجوري، أدوات الخياطة، بياعو الخضر والفواكه. وفي الضفة الأخرى للمجرى، توجد دكاكين الجزارين وفندقان، واحد منهما مخصص لمسافري تلمسان والمغرب، الفندق الثالث حول بعد سقوط المدينة بين أيدي المقاومة إلى ثكنة عسكرية للأحصنة وتخزين الأسلحة.
بينما الطريق الذي ينطلق من الساحة باتجاه باب علي، تتزاحم حوله الدكاكين الصغيرة للموريسكيين واليهود، وسوق الحبوب المغطاة المواجهة للبرج وسوق الصوف والزرابي والكتان والحياك البيض التي يلبسها السكان والبرانس التي تصنع في المكان نفسه وعلى مرأى من حركة المارة. في الجهة الخلفية من السوق يوجد الكثير من المشتغلين على الأسلحة، الذين لا يصنعون الأسلحة النارية ولا السيوف ولكنهم يقومون بإصلاحها. بالمدينة عشرة آلاف ساكن يتوزعون بين الموريسكيين المهجرين واليهود والكوروغلي. الكوليرا التي استمرت ١٨ يوما في أكتوبر ١٨٣٤ أكلت أكثر من ألف وخمسمائة ساكن. على حوافي السوق توجد مقاه ضيقة ومتسخة، لا تقدم إلا القهوة التركية بخمسة سنتيمات والشيشة التي تقلل بعطرها من رائحة الأرجل النتنة والحشيش للزبائن الخاصين. كل من جلس يشرب لا يقوم إلا إذا جاء من يقومه. فهي أمكنة للاستراحة من متاعب السوق ومشاكل الأسبوع الثقيلة. ولهذا كثيرا ما يأتي البراح ويوقظ الناس من غفوتهم لكي يستمعوا إلى خبر مهم عن هجوم أو عن زواج أو عن إعدام سيعلق فيه شخص على بوابة المدينة.
كثرة الجنانات تغطي قليلا بؤس المدينة وفوضى السوق. الجير ينزع من محجر يقع فوق جنان الباي، ليس بعيدا عن البوابات الخلفية للمدينة.
بعد أن شربا قهوة الصباح لفلف الفلاح الأول برنسه الأسود الذي غطى به حائكا ناصع البياض واتجه نحو القوال وهو يقهقه في وجه صديقه الذي كان مايزال مزطولا بكمية الحشيش التي تناولها:
– يا الله يا سيدي نسمع له، يقولون أنه انتهى من قصة السيد علي وراس الغول وبدأ هذه الأيام يروي قصصا غريبة عن رجل سيأتي وسيملأ صيته الدنيا قاطبة. رجل لا ريب فيه. رجل يشبه المسيح ابن مريم وهو ليس مسيحا. هو مولى الساعة كما يقولون وكما يقول القوال في السوق.
– نسمع شويه وبعدها نسير مع الجميع في صلاة الاستسقاء.
على الرغم من الجفاف والأمطار الشحيحة والأوضاع المرتبكة وحالة الحرب، كانت سوق معسكر تمتلئ في ليلة الخميس. المزارعون الآتون من بعيد وبائعو الشعير والصوف والبهائم، الحدادون والمصلحون لحوافر الخيل والنحاسون والبرادعيون والخياطون والطرازون والبراحون الذين يذيعون الأخبار في وسط الأسواق ويشيعون الصفقات الكبرى وأخبار الأعراس والاجتماعات وغيرها، كلهم ينتظرون أيام السوق المتعاقبة لتنشيط أعمالهم وحركتهم. لكن أطراف السوق التي تصير صفراء كلما هبت الرياح الآتية من الجنوب، يحتلها القوالون. فهم أول من يصل وآخر من يغادر المكان. البراح هو الوحيد الذي يسمح له بالعمل في نفس مكانهم. منذ الصباح وهو يجوب السوق مرددا الخبرين الأساسيين: صلاة الاستسقاء واجتماع البيعة ويحذر الناس بضرورة تفادي العمل مع النصارى الذين يتربصون بالمدن والمزارع ونقاط الماء. القوال الأعمى وابنته وقرده لم يولوا أي اهتمام للبراح، فهم يعرفونه من صوته المبحوح. لثاني سوق على التوالي يغير القوال قصته. لم يعد يحكي عن السيد علي وراس الغول ولكن عن قصة الشاب الذي خرج من صلب الأرض بعد رؤيا رآها والده وسيدي لعرج وعلماء أرض الحجاز.
«عوده يقطع لبحور والوديان ولجراف العامرة وسيفه بتار يفلق الجبال واحجار الصوان. رجل شرب العلم في الكيسان وجاي من بلاد برانية. يقول الذين عرفوه أو سمعوا به، أنه بسلطانه، سيغلق أبواب البحر في وجه النصارى والكفار الذين ظنوا أن كل الأبواب مفتوحة. يدير فيهم واش دار السيد علي في الكفار.»
– واش دار فيهم أنا خوك؟
سأل الرجل المحشش وصاحبه، القوال الأعمى.
– تسولني يا وحد الجاهل. احلف باش ما يوقفش الحرب حتى يشوف الدم وصل ركاب الخيل. ربي سمعه وأغرق الدنيا بالماء والأوحال فاختلط الكل بدم الجرحى لتعلو المياه إلى ركاب الخيل. ولم يحنث السيد علي ونجت رؤوس كثيرة تابت إلى الله تعالى. الشاب هذا يا سادة يا كرام، عليه بركة سيدي عبد القادر الجيلاني والأولياء الصالحين. عوده مثل البراق، ويطير حصانه للسماء عندما يحاصره الأعداء. سيفه البتار يطفئ البرق من حدة لمعانه. القرآن في القلب وفي يده اليمنى سيفه الذي لا ينزل إلى الأرض ولا ينام. وساسبو ما يخونه أبدا. ناره ما تروح في الفراغ. في موقعة وهران خلاص له البارود، رفد عصاه وحفنة تراب وقال ربي أعني ونوشن صوب عدوه وفتح يده، فتت العدو اللي كان قبالته.
ثم التفت القوال نحو قرده وبدأ يراقصه ويغني له:
– اشطح يا ولد المخازنية، جدودك الأتراك باعونا بفلس وطيز رومية. اشطح يا ولد التالفة وقل في هذا الدوار الخالي، راح اللي بنى وعلاّ، ويلك يا اللي تثق في الدونية. قل لهم لو كانت الدنيا تدوم، كانت دامت للي سبقوكم. اشطح يا ولد المخازنية وازها وخاطيك. وفرح قلبك وسرح مسجونك وقل هواك، اللي دار على راسك شاشية السلطان راح ونساك وباعك بالرخيص...
ثم ناولته ابنته آلة الربابة من جديد وبدأ يعزف والقرد يرقص وبنت القوال تغني له بصوت شجي نفس كلمات والدها. «**اشطح اشطح يا ولد المخازنية، باباك ما هو عربي وأمك ما هي رومية؟ شكون جابك لترابنا يا ولد التركية.**»
كان القوال على عداوة دائمة مع الشاويش لطرش إبان سلطان الباي. كان الشاويش يستمع بدقة إلى قصصه وكلما سمعه ينتقد الأوضاع، طرده خارج السوق، ليفرش حوائجه في الجهة الخلفية من السوق قبل أن يعثر عليه الشاويش لطرش من جديد. القط والفأر. عادات الشاويش لم تتغير إلى اليوم. كلما رأته ابنته القوال قادما بعصاه الخشنة، أخبرت والدها بالأمر فيغير حديثه تماما بشكل يرضي سماع الشاويش: **ولد العصملي يا سادة يا كرام، بنى وعلى حتى وصل السماء، خيره كبير وبركته نورت الدنيا**... وبمجرد ابتعاده يعود إلى انتقاداته القاسية: ولد العصملي جبر لمطامير واجده وامسح الأرض وأكل الأخضر واليابس. الرجال ما ماتوش. علق ونسى، الحقد كما النار، لما تنفخ فيها تزيد تشعل... ولد العصملي...يا قردي يا الزين، سرح مسجونك وقل هواك، اللي دار على راسك شاشية السلطان راح ونساك وباعك بالرخيص...
ثم ينزع القرد الشاشية المطرزة من على رأسه ويقلبها ويمر وسط الجموع، يجمع النقود وعندما ينتهي، يضع الشاشية عند رجل سيده. يحك رجله ليحسسه بوجوده، فيضع القوال الأعمى بين يديه برتقالة أو حلوى تركية ويتركه يتلهى بها في انتظار جمع حوائجه مع ابنته قبل مغادرة المكان.
بينما يكون الشاويش قد انسحب وهو يبرم شواربه بفخر:
– هكذا، على الأقل اعترفوا بولي النعمة. سيدي الباي يمنحكم الخير والأمان.
ثم يبتعد حتى يغيب نهائيا راضيا على عمله الصالح. وعندما يؤذن الظهر، يلتقي الرجلان وجها لوجه من جديد عند بوابة المسجد، لا أحد يحادث الآخر. بنت البراح تمتم في أذن والدها.
– الشاويش هنا، راه قدامك ويشوف فيك، عرفك.
يقول بصوت مسموع:
– هذاك المهبول اللي ما يعرفش بأن الباي انتاعه كلاه حمار. قدامه الحيطان ويفلق راسه إذا حب، هنا ما عندو ما يدير رانا في بيت الله.
يصلي صلاته ويعود إلى موقعه حتى إذا لم يبق أحد انسحب نهائيا وطوى حوائجه وركب دابته باتجاه سوق آخر في المنطقة. يعرف الجهة بكاملها. يقول أنه يستطيع أن يصفها ركنا ركنا.
– مادامت عيون رقية حية، فأنا أقدر على الرؤية من أي واحد، نهار اللي تتزوج رقية نشد في الله وبركة الأولياء الصالحين وسيدي عبد القادر الجيلاني الذي يستقبلني كلما ضاقت سبل العيش واشتد شطط الأسفار.
بعد صلاة الظهر. وقف الإمام في المقدمة وخطب في الناس تحت أمطار ثقيلة قليلا ما تسقط بهذه القوة في نهايات الخريف:
– إن الله يسمع من المؤمنين آلامهم. الحمد لله الخير بدأ ينزل علينا. أبشركم أن هاتفا وقف على سيدي الأعرج وسيدي محي الدين وبشرهم بسلطان سينزل من لحمهم، فارس لا شيء يشبهه، فيه من روح الله واستماتة المجاهد وسمة الأنبياء. اليوم ستتم مبايعة هذا السلطان الذي سيحارب فلول الغزاة الذين سرقوا البلاد وكرامة العباد والكفار والمرتدين في السهول حتى حدود وهران. سنذهب كلنا إلى مقام سيدي عبد القادر. انصروه ينصركم الله.
ترددت كلمة آمين مختلطة بالأسئلة التي لم يعرفوا مصدرها ولا جواب لها عبر الوديان التي بدأ ماؤها ينز وريحها تشتد.
ثم طلب من كل المصلين أن يقلبوا ألبستهم وأن يرفعوا الأعلام الملونة، وسار الجميع نحو سهل اغريس. امتلأت الضياع بالكبار والصغار الذين التحقوا بالمتسوقين. الشيوخ على الدواب والنساء في المؤخرة والأطفال في الخراج وفي المعابر والطرقات. كانوا يطلبون الرحمة والماء. صلاة الاستسقاء واجتماع البيعة جمعا هذه المرة الآلاف من الناس الذين التحقوا بمقام سيدي عبد القادر الجيلاني شاء الله به.



-٧-

أمطار أيام الخريف الأخيرة التي سقطت بكثافة جعلت سهل غريس يخرج من الموت والعطش. مياه وادي الحمام التي غادرت الجنبات منذ الصباح الباكر تدفقت على التربة الجافة، فدفعت ببعض النباتات الخضراء إلى الخروج من بين الشقوق والأرض المتصلبة والجافة.
تبدو معسكر من بعيد كمجموعة من البنايات المتراصة المتداخلة بدون انتظام، غارقة وسط مجموعة من الحقول التي تغطي كل مداخلها. لم تكن أكثر من حامية تركية ومركز عبور وسوق يلتقي فيها الخضارون والباعة اليهود والمسلمون مرات قليلة في الأسبوع حيث تتحول إلى ملتقى لكل أطراف المدينة.
- بشرى خير هذه الأمطار. الناس ينتظروننا في المسجد.
قال محي الدين لابنه الذي كان منهمكا في تصفح حوافر حصانه والحدوتين الجديدتين ويتحسس عيني وصدر حصانه عند مدخل المدينة.
- أنت تعرف أن عود حميان لا يخدع صاحبه، شرط أن تكون الصفايح مليحة.
لكن الشيخ محي الدين كان غارقا في موضوعه الأثير الذي فاتح فيه ابنه طوال أيام الأسبوع وصباح هذا اليوم قبل أن ينصاع له بصعوبة وبدون قناعة كبيرة.
- هل تتذكر الرؤيا البغدادية؟
- نعم. تحدثنا فيها كثيرا. أتذكرها جيدا وبغداد ما تزال ماثلة في ذهني منذ زيارتنا لها في تلك الأيام التي صارت اليوم بعيدة، بمساجدها وزواياها وساحاتها الواسعة.
- لقد عاودتني نفس الرؤيا من جديد بشكل ضاغط. عاد الهاتف نحوي وهو يصر ويضغط علي: ماذا تنتظر لكي يصير عبد القادر سلطان الغرب؟ أنت تمارس معصية ضد نفسك وضد ربك. الرؤيا يجب أن تجد طريقها ومسالكها.
هز عبد القادر رأسه ولم يعلق إلا بكلمات محدودة.
- علينا أولا أن نعرف رأي القبائل القريبة منا. لقد خلقنا قوة كبيرة لمحاربة الغزاة ولا أريدها أن تتفرق بسبب حسابات صغيرة. المهم ليست الخلافة ولكن من يقود الحرب حتى النصر؟ إلى اليوم لا يوجد غيرك من يستطيع أن يحقق إجماعا.
- للعمر شروطه يا ابني ولم أعد قادرا على أداء ديني تجاه هذه الأرض. وكل الأنظار تتجه اليوم نحوك. شاب ومحارب من الطراز الرفيع.
- ربي يجيب الخير.
ظل عبد القادر صامتا طوال المدة التي عبرت فيها الأحصنة الوادي وجنانات الباي قبل أن تأخذ طريقها نحو المسجد.
رأى عبد القادر من بعيد الأدخنة التي تعالت في عمق السماء. لقد محت كل شيء وطردت بقايا الجراد الذي هجم قبل يومين على كل السهل. لا يوجد حل لطرده إلا الأدخنة وحرق العرعار وقتل اليرقات التي ستجد في رطوبة المطر فرصة ملائمة للتكاثر الهادئ، والجري وراء الأسراب التي حينما تأتي تأكل الأخضر واليابس. في السنوات الماضية وقعت حرب قبلية مميتة بسبب الجراد، كل واحد يتهم الآخر بأنه كان وراء أسراب الجراد التي تركت حقله وتحولت نحو حقل خصمه. احتاج المتصارعون إلى كل حكمة الشيخ محي الدين وحكماء القبائل لكي تتوقف الحروب القاتلة. في السنة الأخيرة أدرك الناس أنه لا حل إلا بالعمل الجماعي وأن الجراد أينما حل فهو خراب وسيجتاح كل الأمكنة المتبقية إن عاجلا أو آجلا.
زادت الرياح قوة في هذا الصباح على غير عادتها. ومع ذلك استمر طلاب الزاوية وخدام المقام في تعليق الأعلام الملونة بالأبيض والأحمر على الرغم من طغيان اللون الأخضر والمطرزة بأيدي نساء قبائل غرابة وهشام اللواتي يجدن لذة كبيرة في التفنن. كنست الساحات الكبرى وبدا كأن سهل اغريس مقدم على احتفالات استثنائية. الوشوشات في المقاهي المرمية على الأطراف والمصليات الصغيرة، عن اجتماع كبير، لم تتوقف أبدا منذ أكثر من أسبوع.
ما كاد الشيخ محي الدين يتربع في ساحة المسجد المغطاة بغطاء كبير من الخيش البني الذي يقي المكان من المطر والشمس، منضما إلى بقية رؤساء القبائل الذين سبقوه إلى الساحة، حتى دخل عليه سيدي الأعرج، مرابط سهل غريس:
- يا خويا محي الدين، شفت منامة.
- خير وسلامة، أجاب الشيخ محي الدين آليا.
- لقد رأيت حلما يشبه ذلك الذي رأيتك فيه تقطع الفيافي للحج.
- كلامك يا الشيخ الأعرج لا ينزل إلى الأرض؟
- رأيت مولاي عبد القادر الجيلاني شاء الله به في لباس أبيض فضفاض. أخذني نحو زاوية خالية وقال لي أغمض عينيك. أغمضتهما وعندما فتحتهما، كشف لي عن عرش كبير في الصحراء. قلت سبحان الله. ثم مد يده نحو سهل غريس وجاء بشاب مليء بالحياة في عمر سيدي عبد القادر ووضعه وصيا على العرش.
- إن شاء الله ربي يتمم بالخير هذا اليوم.
- إن شاء الله وبسرعة قبل أن ينفرط عرش الصحراء. القبائل تعبت وبعضها ما يزال يرى قدوته في الأتراك الذين باعوا كل شيء، الجزء الآخر منها بدأ ينظر بعين الخوف تجاه النصارى وما تبقى يتهاون ولا يرى نفسه معنيا بما يحدث ويخترق الحصار المضروب على الغزاة. يجب أن نتحرك يا الشيخ محي الدين قبل فوات الأوان.
كانت الشمس قد انسحبت قبل وقتها تحت الغيمات القليلة التي ارتسمت في السماء قبل أن تتمزق إلى أشلاء صغيرة. امتلأت ساحة المسجد وجلست البقية عند المدخل في شكل دائرة واسعة.
كل الأنظار كانت مصوبة نحو الشاب الذي كان يجلس مواجها لوالده. لقد تحدثت عنه الحارات والأسواق الشعبية حتى أن الكثير من القوالين يخلط بينه وبين سيدي عبدالقادر الجلاني. رأوه على حوافي مدينة وهران ينظم القبائل ويناوش الفرنسيين ويحدد المواقع الضعيفة التي يمكنه أن يدخل منها. رجل الغبار المتصاعد والبارود والزغردات وقرع طبول الحرب وحركة الأحصنة وهي تسابق الريح.
انتهى سيدي لعرج وقبائل هاشم وبني عامر والغرابة في ذلك اليوم إلى الاقتناع بأن الظروف الصعبة تحتم على سيدي محي الدين أخذ زمام الأمور بين يديه وإلا ضاع الضرع والزرع. عندما تدخل الشيخ محي الدين بصوت حكيم كعادته وهادئ لا تكاد تسمع إلا نبراته الأخيرة، كانت كل العيون مصوبة نحوه:
- أدرك ثقل المسؤولية والثقة. حاربنا من أجل هذه الأرض بكل إخلاص. لقد انسحب بوايي[24] بعد فشله الذريع في تذليلنا لكن للأسف حل محله ثعلب آخر، أكثر دهاء من سابقه. دوميشال[25] الذي يستعد الآن لتعويضه وهذا يحتاج إلى دم جديد لست قادرا عليه. العمر سلطان. ومع ذلك أضع أمامكم ابن الزهراء، عبد القادر، فإن شئتم توليته سلطانا على الغرب، فلكم ذلك وإلا اقترحوا من ترونه مناسبا لهذه المهمة الكبيرة. لم أعد قادرا على تحملها.
ساد الصمت ونظرت الأوجه المتعبة إلى بعضها البعض. تململ المرابط سيدي لعرج داخل برنسه الرمادي الخشن متكئا على عصا الزبوج التي كانت بجانبه. قام بصعوبة من مكانه ثم انحنى على رأس الشيخ محي الدين وقبله. التفت إلى الحاضرين متكئا على عصاه:
- تصمتون؟ معكم حق. لكن سيدي محي الدين كبر ولم يعد قادرا. الرؤيا التي رآها في بغداد، رأيت شبيها لها هنا، فلا تجبروه على تغيير ما رأى. والهاتف الذي جاءني ألح علي بأن أخبر الناس بخصال هذا الشاب الذي سيقود هذه الأرض نحو الخير. كلها علامات تقودنا نحو التكاتف حول هذا الرجل الذي تقول الرؤيا إنه سيغير الموازين وسترتعش الأرض تحت حوافر خيله. فلا تتركوا العلامة تنطفئ لا تتركوا العلامة تنطفئ هذه هي وصيتي الوحيدة.
ثم خرج ولم يعد في ذلك اليوم. الناس يعرفون جيدا أن سيدي الأعرج عندما ينطق، لا ينطق عن الهوى وعندما يقوم من مكانه فهو يأمر الناس أن يسلكوا المسلك الذي اقترح وإلا تنصل عنهم وصام شهرا في بيته، لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسد الرمق حتى لا يموت. في عام الجراد عندما تطاحنت القبائل، لم يأكل حتى حقنت الدماء.
ولهذا بمجرد خروجه من المسجد، تصاعدت الأصوات مهللة: الله أكبر. الله أكبر. عبد القادر سلطاننا. عبد القادر سلطاننا...
في مساء اليوم نفسه وقبل أن تنطفئ الشمس وراء سهل اغريس، أعلن عبد القادر سلطانا وأميرا للمؤمنين. ولتفادي غضب ملك المغرب اكتفى عبد القادر بلقب الأمير حتى يحافظ على الأواصر على الرغم من بداية تفككها. قرأ صك البيعة على ممثلي القبائل الكبيرة الثلاثة. بايعه كل من حضر بينما أرسل صك البيعة إلى كل أراضي بايلك معسكر ووهران وتلمسان بواسطة موفدين انطلقوا في الليلة نفسها.
وقف الشيخ محي الدين في الوسط. كانت الأمطار قد عادت إلى السقوط ولا تسمع إلا نقراتها وهي تنكسر على سطح غطاء الخيش البني الذي كان يغطي ساحة المسجد. بدأ عبد القادر في قراءة صك البيعة بتأن قبل أن يخرج الجميع، كل باتجاه مهمته:
باسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد الذي لا نبي بعده.
إلى الشيوخ والعلماء وإليكم يا رجال القبائل وخاصة فرسان السيف والأعيان والتجار وأهل العلم، السلام عليكم.
وفقكم الله وسدد خطاكم وجمع شملكم وحقق لكم النجاح ويسر لكم الخير في جميع أفعالكم وبعد.
فإن أهل مناطق معسكر واغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم وبني شقران وعباس والبرجية واليعقوبية وبني عامر وبني مهاجر وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم قد أجمعوا على مبايعتي أميرا عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم كما قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين وإزالة النزاع والخصام من بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا. وكشرط لقبولي فرضت على أولئك الذين عهدوا إلي بالسلطة العليا، واجب الامتثال دائما في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدسة وكتاب الله وأن يقيموا العدل على هدى سيرة رسوله بأمانة وتجرد على القوي والضعيف والشريف والمشروف وقد ارتضوا بهذا الشرط.
أدعوكم إذن لتحضروا إلينا، لتقدموا بيعتكم وتظهروا طاعتكم، وفقكم الله وأرشدكم في الدنيا والآخرة.
إن هدفي الأسمى أن أحقق ما فيه الصلاح والخير واتكالي على الله فمنه وحده أنتظر الثواب والفلاح.
حرر بأمر من ناصر الدين، السلطان وأمير المؤمنين عبد القادر بن محي الدين أدام الله عزه وحقق نصره، أمين، بتاريخ الثالث من رجب ١٢٤٨ الموافق ل: ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢.

انطفأت فجأة كل الصراعات المحتملة. الكثير من القبائل كانت قد جاءت وفي ذيلها أمير كانت تريد اقتراحه أو فرضه بالقوة لأنه تبدى للجميع أن الأخبار التي تسربت عن اعتزال الشيخ محي الدين كانت حقيقة أو قريبة من الحقيقة. الناس يعرفون جيدا أن أبناء الشيخ

24 Boyer
25 Desmichel

محي الدين، هم من أصبح يدير تجارته في أرزيو ووهران وحتى العاصمة وأن حضوره في المعارك لم يصبح إلا رمزيا وتوجيهيا. في النهاية، كل القبائل استسلمت لسطوة الشيخ محي الدين ولرؤيا سيدي الأعرج التي لا تخيب.

كانت الظلمة قد بدأت تنزل عندما خلت ساحة المسجد وتفرق الجميع تحت تمتمات، بعضها كان واضحا ويهلل بحياة الأمير والشيخ محي الدين والزاوية القادرية وأهل مناطق اغريس والجوار وبعضها الآخر حمل غموضه وأسئلته المرتبكة وخرج بها نحو بيته أو قبيلته.

–٨–

بعد الترميمات الجديدة لطابقي قصر الباي وإعادة طلائهما بالجير لمحو آثار البارود العالقة بالجدران الخشنة التي خلفتها المقاومة التي انتهت بهرب الباي باتجاه وهران عندما حاصرته قبائل سهل اغريس، استقر الأمير وعائلته في القصر، في جنان البايلك.

الأيام التي تلت لم تحمل أخبارا جديدة سوى بداية تغير في العادات والنظم. الأمير دخل في حالة صمت وتأمل وتعبد وعزلة بعد أن منع الغارات على القبائل العربية وهدد بالعقوبات الصارمة ضد كل من يخترق القانون. لم يكن يستقبل إلا القادة العسكريين القادمين من مختلف الجبهات والعيون المتسربين عبر البايلك الوهراني. كان يعرف جيدا أن الوضع كان كل يوم يزداد تعقيدا والتباسا. دوميشال، بعد محاولات متعددة، استولى على جزء كبير من البايلك الوهراني وناسه المقربون لا يتحدثون إلا عن خسرانهم للغنائم التي كانوا يكسبونها من غزواتهم على القبائل المجاورة. عندما دخل عليه أخوه مصطفى في عزلته، كان في الركعة الأخيرة. عندما التفت نحوه، صعب عليه أن يخبئ انزعاجه من قرار أخيه مصطفى الذي لم يتوقف عن إبداء غضبه من وقف الأمير للغارات على القبائل المجاورة المعادية لسهل اغريس.

– لقد سدت كل أبواب الخير في أوجهنا وعندما لا تجد القبائل المتحالفة معنا ما تأكله، ستأكل رؤوسنا جميعا. منذ مدة لم يدخلنا أي شيء من الغنائم بسبب قرار منع الإغارة على القبائل، ماذا نفعل الآن؟

عندما قام من الصلاة، كانت حمرة الغضب بادية على وجهه. نظرته اسودت فجأة وفقدت عيناه لونهما الأزرق الهادئ.

– إلى هذا الحد ما قدرتش تصبر حتى نكمل الصلاة؟ خلاص. كل شيء لازم يتغير. هذاك العهد اللي كنا فيه ناخذ مال الناس بغير حق، راح. القبائل صارت منا، من لحمنا ونحن صرنا منها، اخوة في الخير والشر.

– هذا الكلام لن يقنع الآخرين الذين ينتظرون إجابات مقنعة. الناس تعبوا.

– لقد بايعوني وعليهم أن يتحملوا مسؤولية بيعتهم. اللي يمد يديه لغيره بدون أمر مني ستقطع ويتحمل مسؤولية فعله، ما عنديش حاجة أخرى أقولها.

ثم فجأة لاحظ بأن صدر أخيه مصطفى كان ما يزال مطرزا بالنياشين الذهبية على الرغم من أنه طلب من العائلة التقليل بعض الشيء من مظاهر البذخ والتباهي قبل دخوله في عزلة الأسبوع. وبدون تردد، مد يده نحو صدر أخيه، فنزع بغضب النياشين واحدا واحدا، تحت دهشة هذا الأخير ورماها أرضا وهو يردد:

– ابتداء من اليوم كل شيء سيتغير. لسنا في حاجة إلى هذا البذخ لكي نحارب الآخرين. الانتصار على الغزاة صعب. نحتاج إلى أسلحة حقيقية، إلى الماء، إلى زراعة مغذية. نحتاج إلى تغيير سلوكاتنا اليومية. نفكر كيف نصنع المدافع والأسلحة الخفيفة والسيوف بدل أن نكتفي بالتصليحات. أن نعيد اكتشاف البارود إذا دعت الضرورة إلى ذلك وأن نتخلص من البارود القبائلي الأخضر الذي لا ينفجر وإذا انفجر أحرق صاحبه قبل أن يحرق العدو. المعركة استعداد يومي وإلا سنحني الرؤوس ونقوم بما قامت به بقية القبائل ونعود إلى تصيد الغنائم.

– ولكنك لا تستطيع أن تغير عادات الأجداد وتجعلنا شبيهين لبقية الناس. أولاد الشيخ محي الدين يصيرون مثل بقية البشر؟

– وشكون حنا حتى لا نكون مثل بقية الخلق؟ من نكون نحن إذا فشلنا حقيقة في خدمة الآخرين؟ هل تعرف ماذا فعلت هذه المبايعة في الناس؟ ما راك عارف والو. الحاج مصطفى بن باي عثمان، حفيذ محمد الكبير يطالب القبائل الغربية بالولاء إلى الفرنسيين، الغماري، شيخ أنكاد يحاول جر أولاد سيد الشيخ من ورائه والصحراويين لتعيين سلطان آخر معتمدا على قدور بن المخفي وقبائل الشلف، ومصطفى بن اسماعيل الذي ثار ضده سكان تلمسان يتهمنا نحن بالخيانة والأنانية وسرقة السلطان منه. الجيوش الفرنسية على الأبواب، تهدد بتدمير معسكر. وحليفنا الكبير، قبائل غرابة، ضُربت فجرا من طرف دوميشال وأخذ مالها وو هتكت أعراضها وسبيت نساؤها، ونهبت أموالها ومواشيها. لأول مرة يتذوق الغزاة في وهران، طعم اللحم. وأنتم هنا تتحدثون عن اقتسام الغنائم. يبدو أن الدرس لم يحفظ جيدا.

في اللحظة نفسها دخل الشيخ محي الدين الذي سمع جزءا من كلام الأمير:

– بالهداوة يا ابني. بالسياسة، ما تتقلقش. الله خلق الدنيا في سبعة أيام، وليس حراما التفكير في الغنائم، الناس تعودوا على هذا النظام.

– يا أبي، لا تجعلني أندم على إمارة لم أطلبها. حروب المسلمين القدماء لم تعد نافعة. الكلام لم يعد كافيا. كنا نظن أننا الأفضل في كل شيء وبدأنا ندرك أن الآخرين صنعوا أنسفهم من ضجيجنا الفارغ.

– معك حق. لكن رحمة ربي واسعة والله معنا. نحن نخوض حربا باسمه وباسم السلطان ولو أنه نسينا. يمكن لأمة فضلها الله عن غيرها أن تغير الموازين في أية لحظة.

– يا شيخي، كلامك كبير ولكن الزمن تبدل ومعه تبدلت السبل والوسائل. نحن على حوافي قرن صعب. إنهم يصنعون المدافع والبنادق والسيوف الحادة ونحن مازلنا نراوح أمكنتنا ونزهو كلما أقمنا مقاما جديدا في سهل اغريس. سبحان الله؟ لقد وضعتني في مكان لم أختره وأخافه مثل خوفي من ظلم الناس، وقلت لي قل قولة الحق حتى في نفسك وها أنذا أقولها في وضع أرى فيه البلاد تموت والأراضي تضيق.

فهم محي الدين جيدا أن ابنه بعد أسبوع العزلة خرج مصمما على خياراته. تمتم ثم لف نفسه داخل برنسه واستعد للخروج:

– معك حق يا ابني. ربي يتمم بالخير.

كان أخوه مصطفى قد غادر المكان.

– يا أبي وشيخي الكبير، قل لأعمامي أن يقللوا من مظاهر البذخ وأن يرتدوا ألبسة أكثر ملاءمة للمعركة. الغزاة يملكون الآلات التي لا نملك ونملك حيلة أبناء الأرض التي تنقص من قوتهم وجبروتهم، إذا عرفنا كيف نستغلها. تنظيم البلاد يحتاج إلى وقت وإلى تفكير كبير، لا نملك اليوم لا هذا ولا ذاك، ولكن بالإرادة والنظام نستطيع أن نقاوم ونحرر أرضنا.

عندما اندفن من جديد في غرفته في آخر الليل، لم ينم أبدا. الحمل ثقيل. عندما كان فارسا كانت شجاعته تقاس بمدى إقدامه لكن اليوم قدرته رهينة استماتة الآخرين. كيف ينظم مجتمعا وقبائل لا ترى أكثر من سلطان رئيس القبيلة ولا حياة لها إلا في الغنائم وإلا تأكل رأس من يحكمها؟ صلى ثم انزوى وبدأ يورق كتاب المقدمة حيث تركه في المرة الأخيرة في المنتصف تماما والمؤلفات العسكرية القديمة والخرائط التي جلبها والده من الحج ومصر وبغداد ويسجل الملاحظات على الهوامش.

عندما لمعت أشعة الشمس الأولى على وادي الحمام وسهل اغريس وانكسرت بقوة على جدار البنايات المتراصة، ماحية كل ألوان الأتربة العالقة، كان هو واقفا في شرفة قصر الباي، يتكئ على الحافة المطلة على المزارع والحدائق. تنفس عميقا روائح النباتات والنوار وشجر الصبار القادمة من جنان الباي وعرقوب اسماعيل ثم رأى البنايات الخربة المحيطة بالمدينة التي أحرقت مع خروج الحكام الأتراك. رأى حركة الناس وهم يتجهون نحو السوق ويصعدون جماعات جماعات الطرقات الضيقة قبل أن تبتلعهم الممرات الملتوية والخلجان والأشجار الكثيفة. من الجهة الأخرى، تبدو بقية المدينة كأنها هاربة صوب السهل أو صوب الوادي الذي كان يحد من امتدادها لتقفز فوقه وتبدأ امتدا آخر من الجهة المقابلة. لم يسمع شيئا إلا الطيور التي كانت تستعد لمغادرة أعشاشها وخوار الأبقار وثغاء الأغنام وهي متجهة نحو المزارع المحيطة. ثم... لا شيء في الأفق إلا الحرائق والحروب المدمرة المزيلة لكل عمران.



-١-

انغمس مونسينيور ديبوش طويلا في تأمل الملاحظات وصفحات الجرائد والكتابة قبل أن يرفع رأسه من على الطاولة. لم يسألني عن الساعة كعادته «جون، قل يا ابني كم الساعة الآن؟» وأجيبه بطريقة ساخرة تعودها مني حتى يقوم للنوم «مثل البارح تماما يا سيدي، لقد حان وقت نومك.» يجيب بهمهمة «طيب» ويعطيني الانطباع بالذهاب إلى النوم ولكنه سرعان ما يندفن من جديد في أوراقه وينسى نفسه حتى الساعات الأولى من الفجر الذي يأتي بسرعة.

هذه المرة لم يسأل عن أي شيء ولكنه واصل الكتابة بتدفق كبير حتى انتهى من ترتيب الجملة الأخيرة في الصفحة التي امتلأت وضاقت حروفها.

– اسمع يا جون وقل لي رأيك.

«في حدود ١٨٣٣ أو بعدها بقليل عقد دوميشال معاهدة مع الأمير، أخطأ أم أصاب فذاك أمر يتجاوزني، في بداية مشواره العسكري المدهش، وكانت بمثابة أول هدنة وبداية سلام ولست مخولا كما لا يخفى عليكم للحكم عليها من أي جهة من الجهات ولكني على الأقل أملك حق سردها وحكيها..»

– جيد هذا الكلام الموجه لرئيس الجمهورية، يا سيدي، لكن بشرط أن تردف ذلك بالتفاصيل حتى يتمكن سيدي نابليون من فهمك جيدا.

– أعرف يا جون أن كل الكلمات يجب أن تكون محسوبة بدقة متناهية. ولويس نابليون ليس من الناس الذين يقتنعون بسهولة.

ثم فجأة حبس تدفق الجمل. ليس من السهل التوجه إلى رئيس دولة بكلام يصل إلى العقل والقلب معا. توقف مونسينيور ديبوش عن الكتابة متأملا مصدر البرودة القاسية، فقد كانت الكوة الصغيرة مفتوحة وأدخلت خيطا رقيقا من البرد، يستقر مباشرة في الظهر كالإبر. البرد في هذا الشتاء قاس وفي بوردو أكثر خصوصا، المسترال الذي يهب عادة في مثل هذا الوقت، شاقا داخل الإنسان في عمقه.

– هل يريد سيدي غطاء. يبدو أن المسترال وجد طريقه عندنا.

– وقته. اعطني القطنية الموضوعة في حجرة نومي.

وضعت القطنية على ظهره. لف نفسه مثل المومياء بحيث لم يظهر إلا رأسه ووجهه وعينيه البراقتين وأصابعه التي لم تترك القلم ولا كأس الشاي الذي كنت قد وضعته بالقرب منه عندما كان منهمكا في الكتابة. كان بخاره ما يزال صاعدا ورائحة النعناع المنبعثة منه تملأ المكان. مونسينيور كان يحب هذه الطقوس التي جاء بها من الجزائر. الثماني سنوات التي قضاها هناك صارت جزءا مهما من ذاكرته إن لم تكن كلها.

– تشكر يا عزيزي جون، لولاك لا أدري ماذا كنت سأفعل.

– ولكن يا سيدي يجب أن ترحم نفسك وترحمنا معك.

– هذه البطانية عزيزة علي. تصور يا جون درجة الحب، كلما وضعتها على ظهري شعرت بدفء الجزائر كله يغطيني من رأسي حتى أخمص قدمي. يبدو أننا لا نغادر أرضا إلا لنترسخ فيها أكثر، وكل البلدان التي نرتادها ليست إلا مناف تعيدنا إلى الأرض الأولى التي تظل عالقة بكلامنا وألبستنا ورائحة أجسادنا.

– مونسينيور؟ من أين تأتي بكل هذا الكلام الجميل؟ ما تقوم به جيد، ولكن يا سيدي أنت لم ترتح منذ عودتك من عند الأمير في بو. ارتح قليلا لتجد القوة أكثر. صحتك أولا.

– أنا الآن بصدد الانتهاء من الفصل الخاص بالمعاهدة مع دوميشال وما سمعته من الأمير جعله يكبر في عيني أكثر. هناك ملاحظات بقيت عالقة سأسأله عنها في زيارتي القادمة. ليس من السهل أن تتحدث عن عدوك بتسامح واحترام. يبدو أن الأمير من صنف آخر.

– كل الذين اقتربوا منه يقولون نفس الكلام.

لم يرد على ملاحظتي الأخيرة ولكنه التفت لقلمه وحاول أن يجد جمله المستعصية. كان نقيق الضفادع الذي يكرهه قد زاد حدة. بذل مجهودا كبيرا لكي يلغيها من ذهنه ولكنه لم يفلح بسهولة. توقف عن الكتابة ثم ذهب نحو القصاصات الكثيرة التي كانت تملأ الطاولة الكبيرة وبدأ يتفحصها واحدة واحدة ثم يفتح جريدة المونيتور وجرائد أخرى ويحاول أن يقارن بين هذا العدد وذاك.

تذكر مونسينيور أن زيارته الأخيرة لقصر هنري الرابع في بو ذكَّرته لم تزده إلا يقينا أن الأمير مظلوم ومخذول بعمق ومع ذلك فقد ظل متزنا. لم يكن يبدو عليه أي قلق عندما حادثه عن الحرب والهدنة وبنودها. كانت المسافة بين ما كان يرويه وما كان يعيشه تزداد اتساعا. الذي أدهش مونسينيور وهو يتابع حركات الأمير وهو يتكلم، هو أن بريق عينيه ظل متقدا بقوة ومليئا بالحياة. لم يكن يبدو عليهما أي ارتباك أو أية رغبة في إخفاء الحقيقة المرة.

– أرأيت كيف كانت عيناه وهو يحدثنا يا عزيزي جون؟

الجملة التي لم يتوقف مونسينيور عن تكرارها كلما فتحنا حديث الأمير.

عندما وضعت كأسا ساخنة من الزهورات هذه المرة، بدل كأس الشاي التي صارت باردة جدا، قال مونسينيور وهو يرشف رشفة طويلة كعادة أهل الصحراء:

– تعرف يا عزيزي جون، الناس الكبار عندما يصلون إلى درجة عليا من نكران الذات تنتفي تماما أنانيتهم. أرأيت كيف كان الأمير يحكي عن دوميشال؟

– طبيعي. لم تعد بينهما حرب، لقد انتهى كل شيء.

– لا يا جون، الأحقاد تشتعل أكثر خصوصا عندما تنتهي الحروب بمنتصر ومنهزم. ومع ذلك. الأمير يملك القدرة الكبيرة على تأمل كل شيء بتبصر وبعد نظر.

– وهل ستقول كل هذا الكلام في الرسالة إلى السيد لويس نابليون؟

– ولمَ لا؟ صحيح أننا أمام مسؤولية كبيرة. ولكني مرتاح الضمير، فقد قطعت وعدا خاصا على نفسي، أن أقف عاريا أمام ضميري وأمام الله وإلا فلا معنى لرسالتي.

– العالم يا سيدي صعب وأخشى أن لا يسمع نداءاتك العميقة.

– أنا متأكد من أنه سيسمعها، وإذا لم يفعل نكون على الأقل قد حاولنا. وسيأتي يوم ما من يرد الأشياء إلى أوضاعها الطبيعية.

ثم أخذ رشفة أخرى من كأس الزهورات، وعاد إلى أرشيفه. نقيق الضفادع زاد قوة. كان يطن في رأسه بعنف شديد كجرس كنيسة قديم، غير مثبت بشكل جيد وحركته ثقيلة ورنته خشنة ومع ذلك فقد أهمله بكثرة التناسي.

بدا له وجه دوميشال كبيرا وخاليا من الندوب وهو يحاول بحماس أن يقنع الضباط الكبار بما نوى عليه بصعوبة، والأمير ينزل من حصانه وينفض برنسه من البارود والأتربة العالقة ويتوجه نحو المكان الخفي في ملتقى جبلين كبيرين ليقنع القبائل أنه لم يبع أرضه للغزاة وأن ألتهم صعبة وأنهم يعترفون لهم بحق السيادة في أرضهم... لكن بدا له الوجهان في أقصى درجات الارتباك. في كل الحروب، هناك من يجنح نحو السلم بحثا عن أرقى السبل للحفاظ على قدر من الكرامة والمال والعباد وهناك من يذهب إلى أقصى درجات التطرف. وراء الأمير كانت القبائل التي تعودت على الغزوات والغنائم، ووراء دوميشال، كانت هناك آلة غير مرئية تبحث كيف تستفيد من الحرب ومكاسبها في الاشتعال الدائم وهي لا تدري أنها تنسج أحقادا جديدا لا توقف الحرب ولكنها تقويها وتعطيها كل مبررات الاستمرار.

- Pauvres gens! deux nobles Don Quichotte sans grandes issues.

تمتم مونسينيور بعد أن وضع النظارتين ثم عاد إلى أوراقه التي كان يفليها ورقة ورقة.



-٢-

٧ ماي ١٨٣٣. الربيع لا يحمل دائما الأخبار السارة. رائحة البارود التي كانت تملأ كل البايلك الوهراني، سرقت من الربيع زهره ونواره وعطره.

بعد أن انتهى من الاطلاع على خريطة التضاريس الخاصة بالمنطقة المحيطة بوهران، خرج الجنرال دوميشال باتجاه الفيالق التي كانت تنتظره في الساحة استعدادا للتحرك.

يعرف جيدا أن فصل الربيع مناسب لقواته التي لا تتحمل البرد ولا التضاريس الصعبة للمنطقة ولا حتى السبخات التي تحيط بوهران والكرمة والتي تجعل أية حركة خارج المدينة صعبة، قاسية ومحسوبة.

كانت الفيالق في الساحة العامة منتظمة بشكل صارم. الخيالة والمدفعية الخفيفة والمشاة الذين كان عددهم كبير، مجهزين بأسلحتهم وبنادقهم وجرابهم الظهرية. شعر الجنرال دوميشال أن أقل من شهر كانت كافية لإعطائه صورة واضحة عما يجب فعله لفك الحصار الكبير على المدينة التي لم تعد قادرة على تحمل الجوع والأمراض التي بدأت تتفشى وتتسع. لقد قلت الفئران والقطط والكلاب ولكن مع غيابهم بدأت الأمراض تزداد بروزا في المدينة.

بعد ساعة من التحرك، وجدت قوات الجنرال دوميشال صعوبات كبيرة في قطع سبخات الكرمة وبركها الآسنة. الناموس يلتصق بأوجه الأحصنة والعساكر مخلفا وراءه أمراضه الكثيرة وإرهاقات حمى المستنقعات. الكثير من الوحدات المدفعية احتاجت إلى مساعدة لكي تتقدم ليلا. الليل وحده كان قادرا على شل ردة فعل القبائل المحاذية لوهران التي تحاصر القوات الفرنسية وتمنعها من التقدم. أصعبها، قبيلة غرابة، من أشد القبائل وفاء للأمير ولسيدي محي الدين.

لم يعد هناك ما يعيق المسالك. بوايبي[26] ذهب حاملا معه مشاريعه وخوفه. لم يكن يعرف ما يجب فعله وحل محله دوميشال بصرامته المعهودة وهو من أنصار تحريك المعركة في أرض العدو. أحسن وسيلة للدفاع هي الهجوم.

– يجب أن نصل إلى موقع الهجوم قبل انبلاج الفجر، يجب أن نأخذهم عل حين غرة وإلا فهم متعودون على صعوبة التضاريس.

قال الجنرال دوميشال لقائد المعسكر وللكابتن كافينياك[27] الذي بدأ يعد الأحصنة والخيالة ووحدات المدفعية بعد أن قطع المنحدرات والوهاد والفراغات التي التهمت أكثر من ثلاثة أحصنة اضطر إلى تركها وراءه. عندما أراد العسكري أن يطلق عليها رصاصة الرحمة. قبض قائد المعسكر على يد الجندي الذي لم يفهم حركة قائده:

– أنت مجنون؟ ليسوا إلا على مسافة قليلة من هنا. سمعهم مثل الذئاب. سنجد أنفسنا محصورين بين رصاصهم والسبخة.

التفت الخيال نحو الحصان:

– لكنه يغرق يا سيدي ويتألم.

– لا أريد أن تغرق البقية. خذ حصانا آخر والتحق بمجموعتك.

لم يعلق والتحق مباشرة ببقية الركب قبل أن يسلم حصانا جديدا بينما ترك الحصان يغرق وكان كلما تخبط في مكانه زاد غوصا في السبخة.

عندما نصب المعسكر الخفيف والتأم كل شيء وتجمع العسكر ، سأل الجنرال دوميشال الكابتن كافينياك عن الخسائر:

– تقريبا لا شيء. فقدنا حصانين واحد غرق والثاني كسرت رجلاه ولم يكن لدينا الوقت الكافي لإنقاذهما وبعض البنادق التي فضلنا إنقاذ أصحابها من ورطة السبخة، وعجلات مدفع حركي صغير وهذا حملناه مع عتاد آخر، يمكن تصليحه بسهولة.

– سيرتاح الجند قليلا ومع البدايات الأولى للفجر، سنهجم على قبيلة الغرابة.

ثم انزوى مع قادته في إحدى الخيام لوضع الترتيبات الأخيرة لهجوم الفجر. لم يدم الوقت طويلا حتى التحق بهم المبعوثون الذين ذهبوا يتقصون الأمكنة ومواقع الدفاع لدى قبائل الغرابة مما سهل تحديد المراكز الدفاعية الصغيرة المبثوثة هنا وهناك من غير تنظيم كبير. الأغلبية كانت متمركزة وراء الهضبة التي تتخبأ وراءها خيام الغرابة وأغنامهم وحميرهم وأحصنتهم.

ليس بعيدا تبدو واضحة النيران المشتعلة عند أقدام خيام الغرابة. عادة تظل هكذا حتى الصباح وهي دليل الرحالة وعابري السبيل ليلا.

عندما بدأت الملامح الأولى للفجر تتضح، بدأت قوات الجنرال دوميشال تزحف نحو أهدافها التي كانت قد حددت. في البداية تحركت ككتلة واحدة ثم انفصلت فرقة القناصين والمدفعين الجبليين وفرق المشاة العشر. كان الهجوم كاسحا، فقد تم تدمير المراكز المتقدمة التي لم تكن تملك أكثر من بعض البنادق التي لم يكن لها وقت الاستعمال وبعض السيوف التي لم تخرج من أغمادها. بينما هجمت بقية قوات القناصين

26 Boyer
27 Le capitaine Cavaignac

باتجاه الخيام ففاجأتها في نومها. كان الناس يتجارون ويتخبطون في كل الاتجاهات، الكثير منهم كانوا عراة تلتهم النيران أجسادهم. فقد رميت ألسنة اللهب على خيامهم وهم في عز نومهم. لم يكن الناس يعرفون ما كان يحدث لهم. الدفاعات المحدودة لم يكن لديها فرصة صد الهجومات المتتالية. فقبل أن تنتظم من جديد، كانت قوات المشاة قد ملأت كل الأمكنة واحتلت الخيام وأضرمت النيران في المحاصيل الزراعية بينما الأغنام كلها سحبت نحو الجهات الخلفية قبل أن تقاد نحو المعسكر ثم إلى مدينة وهران. ليلحق بها فيما بعد الكثير من السجناء والنساء والأطفال من أجل تبادلهم عند الضرورة. لم تكن حربا كبيرة كما توقعها الجنرال دوميشال والكابتن كافينياك اللذان كانا ينتظران ردة فعل قريبة مما يفعله الأمير عادة ولهذا كان الانسحاب من المكان سريعا.

عندما كان الجنرال دوميشال على مشارف وهران، كان الأمير وسيدي محي الدين ينظمان القوات ويحاولان أن يدخلا وهران بعد تخطي السبخات التي عاقت سبيلهما. الأمطار التي بدأت تتساقط لم تساعد العسكر على التحرك بحرية أكثر.

فضل الجنرال دوميشال عدم الدخول إلى وهران، وأرسل كل الغنائم والسجناء صوب المدينة حتى يخفف على قواته عبء المسؤولية. ثم توقف بقواته عند مدخلها، بقلعة سانت–أندري[28]، على مرتفعات المدينة التي تطل على كل السهول والتفاصيل المحيطة بوهران. بعد التحاق القوات المساندة التي طلبها، بدأ يعمل لتكوين وسائط دفاعية للمدينة، تحت حراسة عشر فرق من المشاة وفيلق من الخيالة ومدفعين جبليين. من جهته ظل كافينياك يشتغل بدون توقف من أجل إنجاز حائط دفاعي بالأتربة والحجارة. وعندما بدأ زحفت قوات الأمير لم تنتبه في البداية لجدوى هذا الحائط الترابي العالي الذي يشبه تحصينا قديما، فأرسلوا من يتفحص المكان فأُردي قتيلا. أدرك الأمير أن ما كان يبدو كومة عالية من التراب، كانت تختبئ وراءها قوات فرنسية مدججة بأحدث الأسلحة.

الأمطار التي تساقطت بغزارة لم تسمح لقوات الأمير بالهجوم على القلعة بتحصيناتها الجديدة. فقد توحَّلت الأرض وصار أي هجوم هو مغامرة غير مأمونة النتائج. فقد جاء الأمير إلى وهران وفي رأسه إعادة حصار المدينة وإغلاق كل منافذها حتى انصياع دوميشال لكل شروطه.

عندما توقفت الأمطار، رفع الأمير الرايات البيضاء المختومة بيد مفتوحة كتب حولها بخط واضح: نصر من الله قريب. على الساعة الثانية صباحا بدأ هجومه بهدف المباغتة. كان يتقدم القوات، مدفع محدود المدى وآخر جبلي، تم تصليحه قبل بدء الهجوم بقليل. بعد مجهود كبير وقذائف عديدة ذهبت في الفراغ، أصيبت تحصينات القلعة بقذيفة واحدة لم تحدث أي شيء في الحائط باستثناء ثقب صغير لا يكاد يظهر. رد الفعل كان عنيفا، فقد وجهت قوات الأمير بوابل قوي من النيران من على أطراف التحصينات.

في الصباح، عندما أشرقت الشمس، كان الأمير قد أتخذ قرار العودة إلى معسكر بعدما تأكد أن أسلحته لم تكن قوية بالشكل الذي يجعله يواجه القوات الفرنسية. تأمل قليلا المدفع الصغير والمدفع الجبلي الذي انفلق إثر ثالث رمية، فكر أن يترك كل شيء في مكانه ولكنه سرعان ما غير رأيه، فأمر باش طبجي بتهييء حصانين لجرهما إلى مركز التصليح لإعادة استخدامهما.

– ليست صالحة ولكن ليس لنا غيرها. مدفع مخنفر خير من والو. إن شاء الله هذه المرة سيصلح بطريقة تضمن على الأقل سلامتنا ولا ينفجر في وجوهنا كما حدث للمدفع الجبلي الكبير.

– إننا يا سيدي نستعمل مواد تلحيم غير جيدة. لقد طلبنا غيرها من الشبكة اليهودية في إسبانيا ونتمنى أن تصلنا قريبا.

– ربما يجب علينا التفكير في ما هو أهم من مجرد التصليح.

– شراء مدافع جديدة؟

– لا، قالها الأمير جافة وباردة ثم التحق بسرعة برأس الخيالة بينما ظل الباش طبجي ومساعدوه يربطون الأحبال بصدور الأحصنة لجر المدفعين.

تأكد للإثنين، أن دوميشال لا يملك الوسائل الكافية لشن حرب شاملة للخروج من ضيق الحصار وحماية جنده الذين يغامرون بالخروج خارج المدينة. فالوضع لم يكن مؤمنا إلا بحراسة مشددة. وتأكد للأمير أن الحرب التي يخوضها تحتاج إلى وسائل أخرى، الزمن تغير وأنه كان على حافة عصر انتهى وآخر لا أحد يعرف ملامحه سوى أن الموازين تغيرت بشكل صارخ.

28 Fort Saint-André

-٣-

«نحتاج إلى وقت كبير لكي ندرك أننا من أرض واحدة ولو كنا من قبائل شتى وأن مستقبلنا الكبير في تكاتفنا وتعضدنا وليس في تقاتلنا.»

تمتم الأمير في خاطره بدون أن يترك سبحته.

كان ينتظر وصول ابن دوران وابن عراش قبل الذهاب ظهرا لصلاة الجمعة. منذ البارحة وهو يفكر فيما يقوله للقبائل التي تنتظر خطبته بحيرة.

بدا للأمير أن سقف صالة الضيوف قد نزل قليلا. وأن السماء لم تعد بالارتفاع الذي عهده فيها. منذ الفجر وهو يدقق في الوثائق التي وصلته في الأشهر الأخيرة بصحبة كاتبه بروية وصهره مصطفى بن التهامي. أعاد قراءة بنود الاتفاقية مع دوميشال كثيرا ولم يجد ما يثير الجدل. كان متألما من الحرب التي بدأ يخوضها ضد القبائل التي تنكرت لسلطانه ورفضت دفع الضرائب ومالت إما لسلطان فرنسا أو لحاكم فرض نفسه بالقوة على الجميع. كان يدرك جيدا أن إخراج الناس من دائرة القبيلة، من منطقها ولغتها، يحتاج إلى زمن وإلى تجربة في الساحة. لقد كلفته الحروب القبلية جراحات لم يشف منها ولكنه لا يمكنه أن يوقف المسألة عند هذه الحدود. أي وقت يضيع يصب في مصلحة الذين يريدون الحرب. ومع ذلك ظل يشعر بسعادة غامرة. الكثير من القبائل ارتدت ولكن الكثير منها كذلك أصبحت تطالب بانضمامها تحت الراية السلطانية للأمير، مما أقلق بعض الضباط الفرنسيين. بني مناد وبني مناصر وشنوا وسومترا وموزايا، قبائل تقع خارج القطاع الوهراني زادت حدة تمردها للانضمام إلى قوات الأمير على الرغم من أن الاتفاقية تضعها خارج سلطان هذا الأخير. مما جعل سولت [29] ، رئيس الأركان يشكك في جدية الاتفاقية بين الأمير ودوميشال:

" Je suis bien décidé d'exclure l'émir de toute participation à nos affaires et à restreindre autant que possible l'influence qu'il pourrait exercer et dont il ne ferait usage que pour y donner une extension et un caractère de stabilité que nous aurions ensuite à combattre."

الرسالة الأخيرة التي بعث بها ابن دوران وأوصلها ابن عراش لم تكن توحي بأن العقليات تغيرت. في باريس، وبعد ترددات كثيرة، وملاسنات، تخطت الغرفة الأولى خطوة جديدة حققت فيما يتعلق بالوضع في الجزائر. اللجنة العليا المسماة أيضا لجنة إفريقيا جاءت بعد لجنة تقصي الأوضاع التي أنهت عملها في الجزائر وصلت إلى خلاصة ضرورة الانتقال في المرحلة القادمة هي العمل الاستيطاني. فهي ترى أن شرف فرنسا ومصلحتها يحتمان عليها الاحتفاظ بممتلكاتها[30] على الساحل الإفريقي. وتعيين حاكم عام على الجزائر تحت رعاية سلطة ملك فرنسا. عين مباشرة بمرسوم ملكي مؤرخ ب: ٢٢ جويليه ١٨٣٤ الكونت دروي ديرلون [31] الذي يعتبره الجميع من بقايا معركة واترلو.

قلب الأمير من جديد الوثائق التي كانت بين يديه. خصوصا كلام الحاكم الجديد. لم يلحظ شيئا جديدا سوى أنها كانت تؤكد على الشكوك التي ظلت تنتاب في صدق النوايا:

- "Je ne connais pas le texte du traité passé entre le général Desmichels et Abd el-kader mais d'après ce qu'on m'en a dit, je ne l'éprouverai pas dans toutes dispositions"

عندما واجهته وثيقة فوارول[32] متبوعة بترجمتها، سلمها لصهره ومرشده في الظروف الصعبة مصطفى بن التهامي وهو يردد ببحة في صوته:

– أنظر. إقرأ يا السي مصطفى ماذا يقول فوارول في تقريره.

فتح مصطفى ابن التهامي الورقة الكبيرة مهملا الترجمة الملصقة بها وبدأ يقرأ بعينيه ويتمتم كمن يخاف أن يسمع صوته:

u' Ce chef est aussi entreprenant qu'ambitieux mérite toute l'attention du gou verneur général qui doit s'en méfier puisqu'il est visible que cette arabe veut établir sa puissance aux dépends de la notre. Les relations qui existent entre le général Desmichels et Abdelkader rendent la position de cet officier français général assez bonne, mais il est à craindre qu'Abdelkader ne l'ait pas placé dans une fausse sécurité. J'ai déjà parlé de l'ambition de ce chef arabe sur lequel on ne saurait trop avoir les yeux ouverts"

– وماذا ينتظر سيدي منهم. أنت تعرفهم جيدا، ثقتهم فينا تكاد معدومة وثقتنا فيهم ليست أقل. في رؤوسهم شيء آخر ولهذا فمحاربتهم هي المسلك الوحيد. والله ينصرنا على أعدائه.

– نحن في مرحلة أخرى غير هذه. أنت تعرف أننا بدأنا نخوض معارك طاحنة ضد القبائل لفرض الاتفاقية وقد نترك أرواحنا وراءنا، حادثة الحنايا ما هي إلا البداية ومع ذلك يجب أن نفكر مليا فيما يجب فعله. تربية شعب تعود على الغزوة والنهب والتفكير في الحصول على مال جاره، ليس أمرا هينا. قد نموت ويأتي من يخلفنا ولا يتغير الأمر إلا قليلا. هذا النمط متأصل في النفس كما يقول ابن خلدون ويحتاج للانتفاء إلى تدمير أسسه الأساسية: الطمع والجشع وغياب الاستقرار.

– وماذا نفعل إذا كانت العودة إلى الحرب ضرورة؟

– أمضينا على معاهدة وسنحترمها. المهم أن دوميشال ما يزال على عهده. وأعتقد أنها رجولة كبيرة من طرفه. اسمع ماذا يقول. الوثائق التي بين أيدينا تؤكد على قناعته بما فعل على الرغم من نقد الحاكم العسكري له بأنه تنازل عن حقوق فرنسا للعرب وأنه كان عليه أن لا يقبل الاتفاقية بالبنود الملحقة بها والتي تضعف من موقف فرنسا وهذا وحده كاف لأن يجعلنا نثق في كلمته. إقرأ:

"quand au traité quU¢il ne soit qu'un acte imparfait, il n'est pas moins constant mqu'il a déjà produit des économies pour l'état, qu'il a été très profitable au com merce et que, sous ces rapports, c'est je crois, le premier résultat avantageux obtenu dans nos possessions en Afrique sa majesté apprécira le résultat inespéré des efforts de la division d'Oran et prévoit dans sa haute sagesse les avantages que la France retirerait de ce premier acheminement de la prospérité future de la colonie."

– القادة الحقيقيون يعرفون في الأزمات الكبرى وليس في حالات السلم. ودوميشال قائد كبير. أحرق المحاصيل وسجن سكان الغرابة ولكنه لم يخن أخلاق القائد منذ أن وقع الاتفاقية معنا.

– وإذا عادوا إلى الحرب من جديد؟

– علينا أن نحذر كثيرا يا السي مصطفى. لم يقبلوا بمبادرته. ونحن لن نترك لهم فرصة التراجع بسبب أننا كنا أول من اخترق الهدنة. حتى موقف وزير الحربية الماريشال مورتيي[33] ليس أحسن من ممثليه في الجزائر، فقد بعث برسالة ساخنة لحاكم الجزائر يفتح أمامه السبل لاختراق اتفاقية الهدنة الموقع عليها بالتراضي.

ثم فتح ابن التهامي الوثيقة التي كانت بين يديه وقرأها بصوت مسموع بلغتها قبل أن يدفع بالترجمة إلى الأمير الذي لم يغادر القلق وجهه منذ الفجر الأول:

"Nous ne pourrions, sans compromettre les interets politiques de la France, laisser prendre un libre cours à l'ambition d'Abdelkader. Nous ne devons pas souffrir qu'il sorte de la province d'Oran"

صمت الأمير طويلا وهو يستمع إلى كلام السي مصطفى ويلاحظ حيرة كاتبه الخاص محمد بروية الذي لا يترك لا شاردة ولا واردة من ملاحظات الأمير إلا ويسجلها.

– في مثل هذه الظروف، اللهم اجعلني معتدى عليه ولا معتديا، تمتم الأمير، فالكلمة مثل الرصاصة، عندما تخرج لا تعود. وسأظل على عهدي. لم يعد هناك ما يثير الدهشة. أعرف ذلك جيدا. الكثير من القادة الجدد الفرنسيين يرفضون اتفاقية السلام وما تبعها من تقسيمات المنطقة الوهرانية وسيجتهدون لتدميرها.

29 Soult
30 Possessions africaines, هكذا كانت تسمى المستعمرات
31 Drouet d'Erlon
32 Voirol
33 Le Maréchal Mortier

عندما خرجت الشمس من غمدها الثقيل، بدأ الأمير يفكر في لقائه مع قواده الأساسيين في المسجد الذين سبق أن وضع معهم الترتيبات الأخيرة للتقسيمات الجديدة التي ألحقها بالجيوش والمناطق. عندما عاد إلى معسكر بعد تأديب القبائل الرافضة لدفع الضرائب، قسم المقاطعة الوهرانية إلى ولايتين خلافة معسكر وعلى رأسها مصطفى بن التهامي، صهره وابن عمه، العالم والخطيب والمكلف بالمراسلات مع سلطان المغرب والمسير لشؤون الدولة وخلافة تلمسان وعلى رأسها البوحميدي الولهاصي من جبال طرارة، وله تأثير كبير على القبائل البربرية، يحب الخيل والكتب والأسلحة مثل الأمير. وعين في كل ولاية مجموعة من الأغاليك وعلى رأس كل واحدة منها، أغا يشرف على مجموعة من القبائل هي بدورها تقع تحت وصاية القايد التي يتولى التسيير بالعودة إلى الأغا المرتبط بدوره بالخليفة لإعطاء نوع من الحرية والحركة والمبادرة عند الضرورة الحربية. ومشروع خلافة التيطري شرقا والمكونة من المدينتين الأساسيتين: مليانة والمدية والتي يسيرها مؤقتا سيدي علي الخلاطي المنحدر من عائلة مرابطية ويحكم باسم الأمير في انتظار ترتيب وضعها الإداري.

– كل الخوف هو أن يتم اختراق الاتفاق وينكسر كل شيء قبل أوانه. لسنا مهيئين لحرب قد لا تكون مثل شبيهاتها. ترتيب الدولة يحتاج إلى قليل من الاستقرار.

قال الأمير موجها كلامه لابن التهامي الذي كان يستعد بدوره لتحضير وثائق الاجتماع.

ثم فتح الأمير كتاب حمدان خوجة المرآة، بدأ يقرأ بصوت مسموع:

– كم نحن بعيدون؟ اسمع ماذا يقول هذا الرجل الذي تربى في العز التركي والأرستقراطية في وقت يخون فيه أبناء هذه التربة وهذه الأرض: **أتساءل لماذا وجب أن تتعرض بلادي لزعزعة جميع أساساتها وتحرم من جميع قواها الحيوية، بينما ألاحظ من تفحص أوضاع الدول الأخرى المجاورة أن ما من واحدة منها تعرضت لعواقب مماثلة لتلك التي حلت بنا. أرى اليونان تساعد وتكون على أسس متينة بعد أن اقتطعت من السلطة العثمانية وأرى الشعب البلجيكي قد فصل عن هولندا... وعندما أرتد بنظري إلى بلاد الجزائر، أرى سكانها التعساء قد وضعوا تحت نير الاستبداد والإبادة وجميع ويلات الحرب...**

– حمدان خوجة رجل أصيل. قالها مصطفى بن التهامي بشكل آلي قبل أن يعود إلى تحضير وثائق الاجتماع مع الخلفاء وبعض قادة القبائل.

عدل الأمير من هندامه بعد أن وضع برنسه الرمادي على ظهره. ثم استقام في جلسته على السداري الموجود في ركن قاعة الاستقبال. عندما قيل له أن ابن دوران وابن عراش قد وصلا وهما ينتظران في الطابق السفلي، أمر الحاجب بالسماح لهما بالدخول. كان الأمير ما يزال متعبا من الجراحات التي تلقاها وكادت تودي بحياته في موقعة الحنايا الأخيرة. هو يعرف جيدا أن المشكلة ليست في توقيع معاهدة أو اتفاقية ولكن في كيفية إقناع الناس بالمحافظة عليها ودفع الضرائب. عندما دعته قبائل بني عامر لنجدتها لم يفكر لما يمكن أن يحصل له ولاتفاقية دوميشال. غطرسة مصطفى بن اسماعيل كانت كبيرة ولم تعد القبائل قادرة على تحملها. رأى في تلك اللحظات حيث تتضاءل المسافات الفاصلة بين الموت والحياة، السيف وهو يهوي عليه بعدما قتل حصانه الثاني ولولا ابن عمه الميلود بن بوطالب الذي انتزعه من ضربة السيف لقطع رأسه. تساءل في خاطره لحظتها إذا لم يكن مخطئا عندما قرب منه أناسا لم يتخلصوا من عقلية المخزن التركية ومن عقلية الغنائم والإغارة وحرب القبائل. الكثير من القبائل لم تفهم فحوى الاتفاقية واعتبرتها خيانة من الأمير ودفاعا عن مصالحه التجارية.

هل هو انتصار. الأمير اتخذ قراره النهائي واضعا كل ثقته في الميلود بن عراش الذي تعب من التطواف بين معسكر وبوابات وهران حتى تحصل على الصياغة النهائية للمعاهدة مع الجنرال دوميشال والأمير.

– أعتقد يا سيدي أنها الصورة الختامية للاتفاقية مع شروط الهدنة. كل شيء واضح وهي مشابهة تماما للنسخة التي تملكها.

قال الميلود بن عراش وهو يحاول إخراج الأمير من غفوته وهو ينظر إلى الوثيقة الجديدة الموقعة من ابن عراش وو مردوخي عمار. دقق الأمير جيدا في الوثائق التي كانت بين يديه. لم يلحظ عليها أي شيء يستحق الذكر سوى ختمه الكبير الذي تخترقه نجمة داود وختم دوميشال والتاريخ الذي خط بشكل أنيق: ٢٥ فبراير ١٨٣٤.

– الأمور بدأت تتغير، المعاهدة خطوة نحو البناء. ويجب أن نلتزم بها. لقد أقنعت الفرنسيين بضرورة الاستماتة في الدفاع عن الاتفاقية بكل الوسائل ويجب أن نقوم بالشيء نفسه.

قال ابن دوران الذي ظل صامتا، ينظر إلى حركات الأمير التي لم تكن متزنة كعادتها. يعرف جيدا أن الأمير ليس على ما يرام من عينيه ومن لون بشرته. عندما يكون غير مرتاح لشيء، ينكسر صفاء العينين ويتمادى لون البشرة في صفرة داكنة.

– ليس من السهل. الكثير من الأجواد يحتجون ويرفضون دفع الضرائب بحجة أننا أوقفنا الجهاد، لاحظ الأمير، ابن عامر يرفضون دفع الخراج وهم حلفاؤنا، فهم يعتقدون أن الخراج يخص الجهاد والجهاد أوقف ضد النصارى. هددت مصطفى بن اسماعيل أغا الدواير والزمالة وأبطلت العملية ضدهم عندما عادوا إلى جادة الصواب بعد خطبة الجمعة، لكن مصطفى كعادة أجداده الأتراك عاد وغزا كل من ليس معه، الغنيمة والطمع. وعندما ساندنا بني عامر في الحناية، كان هو ينتظرنا هناك وكدت أموت.

حركة سيدي العريبي ما تعجبنيش، من عائلة تعودت على السيطرة الدائمة على جزء كبير على الشلف في الفترة التركية. حتى المزاري الذي اتكلت على شبابه، تبع طريق جده مصطفى بن اسماعيل. الغريب، بعدما وجدنا سلما مع النصارى صرنا نتقاتل فيما بيننا. نحتاج إلى وقت كبير لكي لا نخطئ في أنفسنا وفي الآخرين.

– لقد كدت تخسر عمرك لحماية هذا الاتفاق وعليهم أن يبذلوا نفس الجهد من طرفهم. هناك صراعات كبيرة في الجزائر ولكني على يقين أن جناح السلم سينتصر. بعض عساكرهم يرفضون الاتفاقية لأن الجزائر صارت مكانا للترقيات في الرتب العسكرية والإدارية. كل من يدخل الجزائر ضابطا صغيرا سيعود إلى أرضه كولونيلا أو جنرالا.

– أنت يا ابن دوران أصيل وملاحظاتك تنور كل الالتباسات. ووكيل يستحق كل التقدير والاحترام. لقد ورثت عن عائلتك اليهودية حرفة التجارة والشطارة. كنت بيننا وبين حسين داي وظللت وفيا في عملك على الرغم من الصعوبات القاسية. وأنت اليوم بيننا وبين الفرنسيين ولم نر منك إلا الخير. هذه الأرض أرضك وأنت سيدها مثلي ومثل أي واحد هنا في البايلك الوهراني.

– دوميشال ليس في وضع أحسن من وضعك كما تعرف ذلك جيدا يا سيدي. اقرأ يا سيدي. قال ابن دوران مقدما وثيقة مخطوطة وضعها بين يدي الأمير. فإذا كان دوميشال قد وافق على الهدنة، فقواده وحاكم الجزائر وبعض الضباط ليسوا على نفس الرأي. اسمع ماذا يقول حرفيا الحاكم العام إلى وزير الحربية:

«كل هذا يبدو لي غاية في الحساسية. وأقترح إرسال الجنرال تريزل، رئيس أركان جيشي للمعاينة بعين المكان، ليدقق كل الوقائع المثارة وجمع المعلومات اللازمة... فإذا بقي دوميشيل بوهران من الصعب إقناعه فيما يتعلق بعبد القادر.»[34]

– وماذا يجب أن نفعل إذن يا السي ابن دوران؟ هل نتوقف عند هذا الحد. كل يوم نفقد العشرات ونحتاج إلى قليل من الاستقرار لكي نفكر في أوضاع البلاد. الفرنسيون ليسوا كما تصورناهم وإيماننا وحده ليس قادرا على تدميرهم. ولهذا يجب أن ندافع على اتفاق الهدنة بكل الوسائل.

– يجب أن ندافع عن اتفاق الهدنة بكل الوسائل، من مصلحة بلادنا وتجارتنا. الاتفاق يعطينا حق السيادة على جزء كبير من البايلك الوهراني، وحق الإشراف على حركة السفن والتجارة في مرسى أرزيو. رجالنا يتحكمون في حركة تجارة القمح وغيرها. نحن من يمون أسواق وهران وإلا سيموت سكان المدينة جوعا. أرسلنا باخرة L'Assomption مملوءة بالقمح من أرزيو إلى جبل طارق في ٢١ أفريل لصالح اعمر وشركاءه ورجعت مدججة بالبنادق والبارود الرفيع و٦٠٠ كيس من الكبريت. أعتقد أن كل شيء يسير على ما يرام.

– بدأوا هم كذلك يدركون أن الاتفاقية لم تكن في صالحهم.

– إنهم يبحثون عن كل أسباب التراجع. عندما تقدمنا للحاكم العام بطلب حق سك عملتنا الخاصة، وُوجهنا بالرفض. ومنعت دار لوسي[35] من توريد ١٠٠٠ قنطار من البارود و١٠٠٠ بندقية و١٠٠٠ خيمة من القماش المصري مقابل القمح والشعير الذي أعددناه لتزويدها به. المشكل هو أنهم يرفضون ملحقات الاتفاقية التي تعطينا كل هذه الحقوق التي فاوضنا عليها بتعب واستماتة.

– وحال دوميشال أمام هذه الوضعية؟

– دافع عن نفسه دفاع الأقليات الخائفة. رفض الاعتراف أمام اللجنة التي واجهها أن يكون قد وقع معكم على كل هذه البنود التي تعطينا حرية الحركة والاتجار. أعتقد أن دوميشال يشعر بنفسه وحيدا أمام آلة عسكرية لا تعرف ماذا تريد من احتلالها للجزائر.

– أنا أفهم تردده ولكنه لا يستطيع أن يتنكر لما قام به أمام قادته. نحن نتعامل مع دولة وليس مع أفراد. وإلا لن يكون الأمر جديا. كدت أموت بسبب هذه المعاهدة، عليه إذن أن يتحمل قليلا خياراته. وعلينا أن نقنع القبائل التي تنتظر في المسجد وإلا على الدنيا السلام فلا يمكن أن نعيش بالكلام. الدولة تحتاج إلى ضرائب.

34 "Tout ceci me paraît tellement serieux que je me propose d'envoyer sur les lieux le général Trézel, mon chef d'état major, pour vérifier les faits dénoncés et prendre tous les renseignements nécessaires si le général Desmichels continue à rester à Oran, il n'y a pas moyen de lui faire entendre raison au sujet d'Abdelkader."
35 Maison Luce

-٤-

تكاثف المطر والبرد ليجعلا من صباح الجمعة هذا صباحا قاسيا وصعب التحمل. يبدو أن الصلوات وصلت إلى الله على الرغم من أن القلوب زادت انغلاقا منذ التوقيع على معاهدة دوميشال.

كان الناس يتوجهون إلى مسجد معسكر جماعات جماعات على الرغم من وابل الأمطار التي لم تتوقف منذ الصباح الباكر. ساعده ابن التهامي وكاتبه بروبلة على القيام وابن عراش. وسار الجميع نحو المسجد لتأدية صلاة الجمعة. كان الإنهاك باديا على وجه الأمير. الكثير نصحوه بتأجيل التحرك ولكنه لم يستطع خصوصا وأن خلفاءه وضباطه كانوا قد نظموا كل شيء. عند مدخل المسجد ودع ابن دوران الذي سار إلى العاصمة بينما دخل الأمير مع ابن عراش وابن التهامي وبروبلة وسط سيل من الناس كانوا في انتظاره. فجأة اكتظ المسجد الصغير المطل على جنان الباي. ساد الصمت برهة ممزوجا بأسئلة محيرة. حاول الأمير أن يستقيم في جلسته بصعوبة، ساعده كاتبه قدور بن محمد بروبلة. عدل قليلا من ظهره حتى شعر بآلام جرح موقعة الحنايا قد خف قليلا.

لم يقل شيئا جديدا في خطبة الجمعة سوى التركيز على المناسبة التي قادته إلى استدعاء الجميع للتداول حول وضع البلاد والعباد قبل أن يطلق العنان لقلبه. **«اللهم أعني، لقد فرضت الحرب علي ولم أفرضها على أحد. الله يعلم ما تسرون وما تعلنون. أنتم أول من دعاني إلى المهمة التي أشغلها؟ أتكونون أول من يدعم المؤامرات ضد هذه الحكومة التي طالبتم بها لقمع الفساد؟ كيف يمكن لحكومة أن تستمر بدون ضرائب؟ كيف يمكن أن تصمد دون تفاهم مخلص ودعم من الجميع؟هل تعتقدون أن أي جزء مهما صغر من الضريبة التي أطالب بها مخصص لنفقاتي الشخصية أو لنفقات عائلتي؟ أن ما أطالب به يمثل ما يلزمكم به شرع النبي وما يجب عليكم تقديمه كمسلمين صالحين وهو بين يدي أمانة مقدسة لنصرة الإيمان والحق.»**

عندما سلم معلنا نهاية الصلاة، التفت صوب الحضور، خلفاء وعساكر ورؤساء قبائل فاتحا النقاش على مصراعيه:

– أتمنى أن يرزقنا الله وقتا لتغيير كل شيء. أعرف أن الزمن الذي عشناه مع أوليائنا وأجدادنا، قد ولى نهائيا وعلينا أن نقنع أنفسنا بأنه ذهب وإلى الأبد وحل محله زمن آخر. أسلحتهم فتاكة وأسلحتنا لم تعد كافية للدفاع عن أرضنا. موقعة وهران بينت لنا نقائصنا وقوتنا ويجب أن لا نتوهم، دوميشال ليس بوابييه[36]. دوميشال أكثر ذكاء وحساباته أدق. حطم الغرابة، وحصن مداخل وهران وأصبح يدافع عن المدينة من خارجها. ولهذا أقلقناه في مخططاتهم وأثقلنا فاتورة حروبهم. ومع ذلك، لم نهزمهم ولم نستطع منع كافينياك من بناء التحصينات.

– أمطار الربيع كانت عائقا بيننا وبينهم، نطق أحد الخلفاء من الزاوية الخلفية.

– صحيح، ولكن الأمطار كانت علينا وعليهم. القذائف التي أطلقناها في ٣٠ ماي ١٨٣٣ لم تحدث إلا ثقبا صغيرا في تحصينات أورليان والبقي تعرفها جيدا، مدافعنا انفجرت في مواقعنا قبل أن تهددهم.

– لأننا لم نكن نملك العتاد اللازم لذلك.

– ولهذا أقول إذا قبلوا بالسلم، فنحن له وإذا عادوا للحرب نكون قد جهزنا ما يكفي للمقاومة. الحروب كما ترون تغيرت كثيرا. نحن كذلك كنا نظن أننا سنأكلهم في ساعة، وأنهم جبناء وأجسادهم النسائية الرخوة لن تصمد أمام سيوفنا. لكن كل يوم يؤكد لي، أنه عندما كان الناس يعدون للحروب كنا نتغنى بمجد لم يعد له أي وجود.

– يا أمير المؤمنين وكيف لنا أن نصدق روميا جاء يحاربنا؟ حرق زرعنا ونهب أموالنا وسبى نساءنا واليوم يقترح علينا سلما خسرنا فيه أكثر مما ربحنا؟

قال ممثل الغرابة الذي كان متدثرا بالسواد.

– الناس بأفعالهم. يبدو أن الجنرال دومشال صادق في معاهدته. فقد أطلق سراح محبوسيه كما وعدنا، أعاد مسجد الباشا إلى المسلمين. سرح سجناء بوابيي بمرسى الكبير وسكان الغرابة الذين غزاهم في نومهم ورد بعض أموالهم وأغنامهم. أليست هذه دلائل كافية للثقة فيه.

– لكنه زحف على مرسى أرزيو واستولى عليه بمساعدة قاضي المدينة الجديد. وبدأ يشيد وسائط الدفاع لحامياته العسكرية الموجودة بعين المكان.

– لكنه لم يمنعنا من إرسال بضائعنا من هذا الميناء واستقبال أسلحتنا. من حقه أن يحمي الحامية وهذا في الاتفاق. بالمقابل أعاد لنا مدينة تلمسان وتخلصنا من بنونة الذي لم يعترف إلا بسلطان مولاي عبد الرحمن، فقد ذهب إلى ولي نعمته في مراكش. كروغلي المشور ساعدونا على سحقه. وأعدنا تسيير شؤون المدينة إلى الخليفة حمادي سقال، فهو أولى بشؤون ذويه على الرغم من انغلاق أبواب المشور في وجهه.

– ومستغانم سقطت بين أيديهم.

– في الحرب خسارة وربح. لا يمكن أن نربح كل شيء في يوم واحد. هذا كله جزء من ضعفنا الذي لم نفهمه جيدا. رحنا نحفر من تحت التحصينات بالفؤوس؟ الحرب لا تربح بهذه الطريقة. الحرب نظام وإدراك لنقاط الضعف وإلا سنظل نحارب المدافع والجيوش المنظمة بالعربات، بالفؤوس والسيوف والمداري، نستطيع أن نقاوم ولكن لن نربح المعركة ومآلنا الاستسلام على الأمد المتوسط أو الطويل. ملك فرنسا نفسه في حيرة كبيرة. لا يعرف ماذا يفعل بالممتلكات الإفريقية كما يسمونها. لجان المراقبة المبعوثة من الملك تبين ذلك. هل تكتفي بكسر شوكة السكان وتأمين تجارتها أم استعمارها نهائيا والاستقرار بأراضيها الخصبة التي تحتاج إلى قليل من العمل لكي تصير منتجة بشكل كامل؟

بجوار الأمير، كان **قدور بن محمد بروبلة** كاتبه يدون كل ملاحظاته في أوراق صفراء ويحاول أن يتتبع كل ما كان يدور في الجلسة ويعرف بحسه أن الأمير كان مقدما على تغييرات جذرية في الحياة والمحيط والتسيير. في الأيام القليلة الماضية، أكد لبعض المقربين أن الوظائف نفسها ستتغير بعد مجيء بعض الأجانب والأتراك الصنائعيين واليهود الذين يستعدون لتسيير مصانع البارود والجلود وتربية الخيل والأسلحة والمدافع وطرق التموين. ويفكر في تحويل مصانع تصليح الأسلحة إلى مصانع حقيقية للأسلحة وسيوقف مصانع إنتاج البارود الأخضر الذي لم يعد نافعا وقد دخل ممثلوه في الجزائر وجبل طارق في حوارات مع مختصين للمجيء إلى معسكر من أجل بناء المصانع والتعليم. المواجهات اليومية والغارات بينت أن الفرنسيين مجهزون لحرب طويلة الأمد سيدها الأسلحة الحديثة والبارود والعربات النقالة التي لا يملك الأمير منها أي شيء.

– الإيمان أيها الاخوة لم يعد وحده كافيا، يحتاج إلى دعامة أخرى أكثر صلابة وأكثر جدوى. الكثير من الأمم القوية ذهبت مع الريح عندما دخلتها الفرقة والحسابات الصغيرة والأنانيات الكبرى.

لم يكن كلام الأمير مرضيا لكل السامعين.

– نحن نملك ما لا يملكون. نملك الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

– ومن قال غير هذا الكلام؟ صحيح أننا نملك إيمانا مخلصا بهذه الأرض ولكننا لا ننسى أننا نشتري أكثر من تسعين بالمئة من حاجتنا من الأسلحة من الخارج وإذا لا قدر الله أغلقت كل الموانئ سنختنق. يجب أن نفكر للبعيد. مرفأ رشقون ما يزال في حوزتنا والإنجليز راضون علينا لأننا نحارب أعداءهم الذين سبقوهم إلى هذه البلاد. سنُمحى إذا لم نبن مصانعنا الخاصة ولهذا نحتاج إلى بعض الوقت والاتفاقية إذا كانت صادقة، فهي تمنحنا الوقت الكافي لإعادة ترتيب بيتنا.

قام شيخ من وسط القاعة وصرخ بأعلى صوته حتى يسمعه الجميع، كان صوته منكسرا وأبحا وجافا:

– ثقتنا فيك كبيرة لأنك من ذرية الحسن والحسين. وسنقضي عليهم ببركة الله والأولياء الصالحين. سيدي عبد القادر سيجعلهم كعصف مأكول. في يسار سيدي النار وفي يمناه السلام ولهم أن يختاروا.

تعالت أصوات كثيرة في القاعة: الله أكبر، الله أكبر. لكن الأمير أحنى رأسه وكاد أن يدخل في غيبوبة من كثرة التعب لولا بروبلة الذي أسنده قليلا في جلسته. الألم لم يمنعه من الابتسام قليلا:

– يا شيخي الفاضل، في الوقت الحاضر العصف المأكول هو نحن. أتمنى أن يكون جنرال النصارى صادقا وأن لا يفاجئنا بخيانة جديدة. لست مرتاحا للمملوك السوري عبد الله العصبوني الذي اشتغل في الحرس الأميري قبل أن يغادر العسكرية ويعود كترجمان لدى الفرنسيين. هؤلاء الناس يلعبون على الكلمات. ومع ذلك على دوميشال أن يعرف والقبائل العربية التي تناصرني أني **سأضع حياتي في الميزان وأراهن برأسي للبقاء وفيا لتعهداتنا. أعرف حقوق الصداقة وهذا دين سيظل على ظهري، فالبادئ بالخير أسبق دائما من المتخلف عنه، لكن إذا جنحوا لغير ذلك فلا خيار لنا. الله غالب.**

بعد نقاشات طويلة ومعقدة، التفت الأمير صوب الحضور موجها كلامه الأخير داعيا لهم النجاح في هذه المهمة التي لا شيء من ورائها إلا مرضاة الله والوطن. كانت عيونهم منهكة ومنكسرة من كثرة المتاعب والبرد والأمطار التي بدأت تخف في الخارج.

بعد الصلاة امتطى الجميع أحصنتهم وتفرقت الفرق وعلى رأس كل فرقة خليفتها أو من ينوب عنه من الأغوات والقواد بينما جزئت الجيوش إلى وحدات صغرى متخصصة كالعيون والقضاة والخيالة والمشاة ورجالات الدفعية على الرغم من محدودية أعدادهم. هجوم قلعة سانت–أندري بمداخل وهران علمتهم أن الحرب تُربح ليس فقط بالشجاعة والحيلة ولكن كذلك بالوسائل. ثم انطلق جيش الأمير الذي بدا عدده كالنمل باتجاه سهل اغريس وعلى رأسه الأمير، لأداء الزيارة وتوديع بقية العائلة وطلب الرحمة من أولياء الله الصالحين لوالده الذي لم يفرح إلا باسترجاع تلمسان وتولية عبد الحميد السقال عليها خلفا لبنونة الذي هرب إلى المغرب قبل أن يموت والأمير ما يزال في طريق العودة إلى معسكر. عندما سمع الخبر من أحد قواده وأن والده قد انطفأ، كان ما يزال تحت وقع موقعة سهل المهراز التي لقب فيها **بالفتى صاحب السبحة**. عندما أعادت قواته المكونة من أكثر من ٥٠٠٠ رجل، القبائل المستعصية إلى طريق دفع الضرائب. وقف قليلا على قبره وقبور الأجداد. قرأ الفاتحة على الجميع هو وخلفاؤه ثم ساروا غرب مدينة معسكر التي تضاءلت بناياتها حتى غابت عن النظر عندما بدأ الانحدار نحو وادي الحمام حيث ينخرط الجبل عميقا فينفصل إلى قسمين يشكلان ممرا ضيقا، في وجهة كان الأمير وقادته وحدهم يعرفونها.

---

36 Boyer

-٥-

نهايات الشتاء.

أخيرا جبال زكار أو المرايا كما يسميها البعض. السلسلة التي تمتد حتى مداخل العاصمة. منها ترى كل شيء، مليانة ومنحدراتها وكل الطرقات المؤدية إلى المدية التي تنام وراء المنحدرات والهضاب المكسوة بالنباتات الموحشة.

كان البرد قاسيا. والجياد منهكة من كثرة السير، عندما توقفت على مرتفعات مليانة. كانت الثلوج التي بدأت تذوب في السفوح، ما تزال عالقة بالأشجار والنباتات الغابية الكثيفة، من بعيد تلمع كمرايا عاكسة لشمس صافية الأشعة. لم يدخل الأمير المدينة التي بدت له كمجموعة من الحجارة البيضاء وهي تنزلق من الأعالي باتجاه السفوح حيث المدينة والسوق والمسجد. فقد فكر في بعث وفد أولا يتحرى الأمر ويعود بالأخبار الأولية. بينما بقية العساكر بقيت مرابطة في مرتفعات مليانة بعد أن ضربت معسكرها في رأس الجبل وأشعلت النار للتدفئ.

تساءل ابن التهامي وهو يدخل على الأمير عن سر هذا التوقف:

– و ماذا نفعل الآن يا سيدي؟

– أنت تعرف يا السي مصطفى أن الأمور معقدة وضباط الحرب ينظرون بعين الريبة إلى تنقلنا لهذه المدينة على الرغم من أننا صرحنا بأن الهدف من وراء حركتنا هو الحفاظ على الاتفاقية وإجبار القبائل العاصية على دفع الضريبة التي تنكرت لها.

– العسكر منهك يا سيدي ولم يعد قادرا على المواصلة. أغلبية القبائل الموجودة في أقاليمنا بحسب الاتفاقية، عادت إلى جادة الصواب ووافقت على العودة إلى نظام الضريبة بعد أن دفعت كل متأخرها.

– ولهذا أفضل أن يرتاح العسكر أولا، وأنت ترتاح الأحصنة وتدفأ بالأكل والأغطية، ما يزال الطريق طويلا نحو المدية. نحن لا نعلم ماذا ينتظرنا هناك. ستنزل أنت ووفد صغير وبعض الخيالة ترون الأمر عن قرب. هم على علم بقدومنا ولكن لا أحد يعرف الطريق الذي سنسلكه.

– معك حق يا سيدي.

– سننزل بالمدينة إذا سارت الأمور على ما يرام وبعدها ننتقل إلى المدية لتأديب المرتدين ونرى ما يمكن أن نفعله مع أخي مصطفى الذي سار في طريق الدرقاويين.

عندما عاد مصطفى بن التهامي بعد ساعتين من المدينة، كان كل شيء جاهزا. هو نفسه لم يصدق ما حُضر للأمير من حفاوة كبيرة وكيف أن الشعب قاطبة كان مجندا لاستقبال هذا الحدث الاستثنائي. الأمير في هذه المناطق صار أسطورة وما كان يحكى عنه في الأسواق كان يتجاوز كل منطق وعقل. لقد تقطاعت صورته بصورة المهدي المنتظر.

– إنهم ينتظرونك يا سيدي بما يليق بمقامك الكبير.

– أعرف أن ناس مليانة أصحاب كلمة وخير. رجال صح.

– أتعرف يا سيدي ماذا قال لي محمد البركاني والآغا الحاج محي الدين الصغير بن مبارك؟ نحن سنقاتل بجواره من أجل فرض سلطانه. يريدون نزعنا من سلطانه ولكننا لن نقبل راية أخرى غير رايته العالية.

– الله يقدرنا ونكون عند حسن ظنهم.

عندما نزل الأمير استقبل على مشارف المدينة هو وجيشه الكبير من طرف كل أعيان المدينة، على رأسهم الحاج محي الدين الصغير بن مبارك ومحمد البركاني. الأول كان أغا العرب وكان رافضا للتواجد الفرنسي وساعدته قبائل بني مناد القريبة من الأمير لكي ينتفض ضدهم وأما البركاني، فهو من عائلة مرابطية عريقة. كان قايد شرشال. عاش في وئام مع الفرنسيين في البداية ثم أعلن الحرب ضد فرنسا بمساعدة نفس القبيلة التي وقفت بجانبه.

في الليلة نفسها أُخبِر الأمير بكل التفاصيل المتعلقة بوضع المنطقة وذُكِر بقضية موسى الدرقاوي المتخرج من مدارس العسكرية لمحمد علي، والذي سيطر على مليانة قبل أن يطرد منها بسبب اختراقه قانون منع التعامل مع النصرانيين. وطورد إلى أن استقر بلغواط وعمل مؤذنا. أقنع الناس بأنه مولى الساعة الذي يرمي كل الكفار في عمق البحر. وعمل أتباعه الكثير لفرضه في ذهنية الناس.

– كلما سمعت أن مجنونا احتل عقليات الناس، أشعر بهول المسافة التي مازالت تفصلنا عن أعدائنا الذين تسيرهم المصلحة والعقل.

– لكنه من الصعب يا سيدي تغيير الذهنيات. ألم تقل، حجارة الصوان أهون لي من عقل متحجر يعوم في الخرافة؟

قال الحاج محي الدين الصغير بن مبارك

– وماذا حدث بعد ذلك؟

– لا جديد إلا ما تعرفه يا سيدي. هجم على المدية واحتلها. المدية لم تكن تملك إلا مدفعا واحدا عندما أرادت استعماله، انفجر في وجهها كما هي العادة بالنسبة للمدافع التي صلُحت كثيرا. هذه المرة اعتمد على القبائل المرتدة وعلى جزء كبير من درقاوة الذين ساعدوه في الإشاعة بأنه بصدد بناء جيش كبير يسحق به الكفار وأعداء الله.

– نرتاح بعض الوقت ريثما يذهب هذا البرد القارس الذي أفقدنا بعض رجالاتنا والكثير من الأحصنة، ونهاجمه في عقر داره.

تململ البركاني في مكانه. انتبه الأمير لحركته.

– فهمتك يا السي محمد. أنت تتساءل عن وضعية السي مصطفى، أخي، قائد فليتة الذي انظم إلى الدرقاويين الذين يناصبوننا العداء. لن أقول شيئا، القضاة وحدهم يفتون في أمره. لا عذر لمن خان الإجماع.

أحنى البركاني رأسه مخافة أن يكون قد أحرج الأمير.

عندما خف البرد وبدأ النوار يخرج من أغماده، خرج الأمير باتجاه المدية.في ٢٢ أفريل ١٨٣٥ كانت القوات في عمق مدينة المدية. الأمير والحاج محي الدين في الواجهة. الرميات المدفعية الأولى هلكت أكثر من ٢٨٠ من أتباع الدرقاوي. وعندما انطلقت الخيالة لم يكن لها أن تتوقف إلا عندما تم حبس حريم الدرقاوي وولده واعتبروا من غنائم الحرب. وظلت الخيالة وراء الدرقاوي حتى البرواقية، وقال عنه مريدوه أنه انطفأ لهم وسيعود قريبا في هيئة أخرى ويبيد أعداءه.

دخل الأمير إلى المدية منتصرا. وعندما جيء له بالمساجين، كان أخوه السي مصطفى على رأسهم. طلب الصفح من الأمير وحاول أن يقبل يده، لكن الأمير التفت نحو الحائط ثم غادر المكان تاركا الفرصة للمجلس القضائي للحكم بحرية. في الأخير اتخذ المجلس أمرية تخص كل المسجونين الذين لم يؤذوا بشكل مباشر السكان ولم يعترضوا سبيل الأمير وكان أخوه من بينهم. فوجئ الأمير بالحكم عندما قال له الحاج محي الدين:

– المفروض أن تسعد بدل أن تحزن. فقد جرد من منصب قائد فليتة وحذره القاضي من مغبة العودة إلى الدرقاوي وأن يلتزم بمحاربته أو الإبلاغ عنه ووافق على ذلك. وقع على وثيقة تأكيد. وأقسم على المصحف أن لا يعود إلى هذا الرجل.

لم يقل الأمير شيئا ولكنه ظل مرتبطا بالسماء التي كانت غيومها تتكدس مخلفة وراءها كتلة من اللون الرمادي الثقيل. ثم التفت نحو الحاج محي الدين:

– تعرف يا الحاج، السي مصطفى محظوظ في حضرتكم. خرجت لأني كنت أظن أنهم سيعدمونه وأو سيفعلون ما أمر به الله في مثل هذه الحالات، لهذا خرجت. ربما لو كنت مكانهم لكنت أكثر قسوة. على ظهري أرواح الذين ماتوا بسبب هبل الدرقاوي وأتباعه الذين ظلوا يروجون لخرافاته. صحيح أنهم كان أتباع طريقة أكثر من كونهم أتباع رجل ولكنهم كانوا يعرفون جيدا الضرر الذي يتسببون فيه.

– لقد اعتبر من المغرر بهم. كل ما فعله هو أنه سقط تحت غواية الدرقاوية. يريد أن يراك ليطلب الصفح منك.

– يصعب علي ذلك الآن، عليه أن ينتظر حتى تبرد الخواطر. أنت تعرف أن الذي يجبن أمام أعدائه مرة يمكن أن يفعلها العديد من المرات. لا أريد أن أكون أخا لرجل يلتفت صوب الحائط عندما يذبح أخوه أمام عينيه.

– هو لم يفعل ذلك.

– فعل ما يشبهه. لا أحد يستطيع الهرب من تاريخه.

بقي الأمير عشرين يوما في المدية التي لم يغادرها إلا عندما تفقد كل شيء ووضع الأمور في مسالكها الصحيحة ونصب الإدارة الجديدة واستمع إلى قسم التعهد والوفاء الذي أداه المنصَّبون، في مسجد المدينة أمام جميع المصلين.

-١-

قطعت العربة نهر اللوار عابرة الجسر الصغير المؤدي إلى قصر أمبواز قبل أن تتوقف نهائيا بمحاذاة كنيسة سانت-هيبار[37]. كعادته، كلما زار مونسينيور ديبوش قصر أمبواز، مر أولا نحو كنيسة سانت-هيبار ليقف قليلا على قبر ليونار دو فانشي، عند الهندسة القوطية المركبة والخشنة المسننة قبل أن يتأمل الصفاء الحميمي الذي ينام فيه دو فانشي مستمتعا بالنورالهادئ الذي يتسرب من زجاج النوافذ الملونة والمعشقة بمختلف القطع التي تعكس النور مثل الشلالات الضوئية. مشى مونسينيور خطوات وهو يتحسس أوراقه. الملف الذي بين يديه كبير ومرتبك. الخمسون سنة لم تتعبه لكن مظهر السنوات يبدو واضحا على محياه وكأنه عاش أكثر من سنه. لحيته المنطلقة حتى صدره وشعره المخفف كثيرا على الأطراف ورشمات الشيب التي تبدو واضحة هنا وهناك ولباسه الفضفاض الذي يشبه لباس الكهنة وصليبه الكبير الذي لا يغادر صدره والخاتم الخشنة التي تملأ جزءا من سبابته، تعطيه أكثر من سنه المعتاد. لا يفتأ كلما تحدث، أن يترك كفه اليمنى تنزلق بين شعر لحيته الكثيفة، كمن يتسلى بشيء في يده ويتركه ينفلت بين أصابعه كحبات الرمل.

الليلة بكاملها أمضاها وهو يحاول أن يفك تناقضاتها ولم يستطع. وقف عند باب قصر أمبواز وكأنه يكتشفه للمرة الأولى. بدت له بناياته كبيرة ولكنها خالية من الحميمية. وفي رأسه أسئلة كثيرة كان يحضر نفسه لطرحها على الأمير. لم يخطئ أبدا في الحكم على شخصيتين: دوميشال والأمير. البارحة لم ينم جيدا فقد استعصت عليه الكلمات في الرسالة هو الذي لم يحفل كثيرا بالدنيا. حلماه الأساسيان هو أن ينقذ الأمير أولا، وأن يجد ثانيا روحا سخية تقبل بتنفيذ وصيته. الحلم الثاني يمكنه أن ينتظر قليلا.

رآه الحارس. عرفه. فقد تعود على وجهه البشوش دوما والذي يشرق نورا على الرغم من التهام اللحية الطويلة لجزء كبير منه.

- صباح الخير مونسينيور. ألم تتعب من الجري. لو كان كل القساوسة مثلك يا مونسيور لتغير وجه الدنيا نحو الأحسن.

- متعة أن يركض الإنسان من أجل شيء هو على يقين أنه حق بيّن.

- طيب. الأمير في انتظاركم. دعني أخبره بمجيئكم. هذا اليوم استقبل قادة كثيرين. يبدو أن وضعية البلاد المعقدة انعكست عليه وعلى نفسيته. ومع ذلك فهو يناقش بشكل جيد ولا ينزعج كثيرا من ردود أفعال الناس ونقدهم. هو الآن يصلي. بمجرد الانتهاء سأنبهك. يمكن انتظاره في القاعة الكبيرة. قهوة كالعادة؟

- مع هذا البرد لا أطلب أكثر من ذلك.

عندما شرب الرشفة الأولى شعر بالحرارة تسري في الأعماق وتخط طريقا تحسس مسالكه. نظر من وراء الزجاج، بان القصر على كل اتساعه، تسرب قليل من النور لتظهر جليا الركائز والأقواس التي لم تكن تبدو إلا كظلال وأشباح متوازية وثابتة. عندما انتهى من الصلاة، وضع الأمير الزربية على الأريكة وخرج عند المدخل حيث صالة الزوار لاستقبال ضيفه. قال مازحا، محتضنا مونسينيور ديبوش:

- مونسينيور، جيد أنهم يتركوننا نصلي على الأقل وإلا لتحول هذا القصر إلى محشرة. أعتقد أن الصلاة لا تؤذي أحدا. فهي ليست بيننا وبينهم ولكنها بيننا وبين خالقنا.

- لا أعتقد أننا وصلنا إلى هذا الحد أيها السلطان الكريم وإلا لن نتحدث عن كائن اسمه الإنسان. الإنسانية يا سيدي عبد القادر، استحقاق وليست إرثا سهلا.

- معك حق. الاستحقاق يحتاج إلى مجهودات دائمة للوصول إلى تحقيقه. ديننا يقول ذلك كذلك. يقضي الإنسان العمر كله بحثا عن تأكيد إنسانيته لأن كل ما يحيطه هو عبارة عن مزالق متعددة، عليه تفاديها بشهامة وعزة نفس.

رد الأمير وهو يجلس بجوار مونسينيور الذي حاول أن يخفف عليه وهن العزلة، والخيبات المؤلمة. فقد فهم جيدا مراميه:

- أيها السلطان، أنت محظوظ كثيرا في هذا القصر، ترتاح قرب أكبر فنان عظيم أنجبته البشرية: ليونار دو فانشي. ربما هون هذا قليلا من حزنك.

- الوضع مختلف يا مونسينيور. هو على الأقل جاء بخياره، بدعوة من الملك ليواصل رسوماته واكتشافاته على راحته ورد الخير للذين منحوه له بأن سلمهم لوحته الكبيرة: موناليزا. مونسينيور، أنت تعرف أن الظلم يبعد عنا رؤية الأشياء الجميلة ويقربنا من الخوف والظلام والسواد. كلما انزويت وفتحت النافذة نحو الجهة الأخرى من القصر، ولا أفتحها إلا نادرا، رأيت الشرفات التي علق عليها أتباع البارون كاستلنو البروتستانت، الذي سلم نفسه للكاثوليك وللملك ولكنه لم يسلم هو بدوره من قطع رأسه. الناس عندما يقفون في مواجهة الشرفات لا يتذكرون حماقة الحكام ولكنهم يستمتعون بأدوات سياحية، هي في العمق أناس تركوا وراءهم حياتهم وأولادهم وذويهم واندثروا. لا ألوم أحدا، لدينا ما هو أسوأ في تاريخنا الإسلامي. معظم خلفائنا مروا على النصل، قتلوا من ذويهم، كبار علمائنا أحرقوا وابن المقفع شوي حيا، الحلاج مزق قطعة قطعة، ابن رشد كاد أن يحرق مع كتبه لولا ضربات الحظ، ابن عربي اتهمه الجهلة بالمروق وغيرهم. للأديان، مونسينيور، أوجه أخرى، مظلمة جدا، ولكني أقول حبذا لو يتعظ الإنسان وهو يرى هذه الجروح ويحس وقعها. قليلا ما أفتح هذه النوافذ لأنها ترميني نحو تواريخ هي من القساوة بحيث يصعب علي تحملها. أفضل أن أبقى أنا وذوي في هذه الدائرة لكي لا نشعر بأن هناك خارجا هو أحيانا أسوأ مما نحن فيه.

- قصة الشرفات معقدة أيها السلطان، نجمت عنها كوارث لم توقفها سيول الدماء وكأن قدر البشرية أن تدمي نفسها لكي تدرك بعد نصف قرن أو أكثر أنها أخطأت. اليقين بامتلاك الحقيقة يعمي صاحبه ويقوده نحو الهلاك.

- مونسينيور، أُدرك جيدا أن هذا النهر العظيم الذي يواجهنا اليوم لو استطاع أن يتكلم لصرخ بأعلى صوته. الماريشال فيايفيل[38] يقص ذلك في مذكراته بالتفصيل كما ترجمها لي بواسوني الطيب الذي أخذ من وقته الكثير. يذكر أن الدم كان يملأ شوارع المدينة. الزبانية المكلفون بقطع الرؤوس والشنق،الذين أتوا بهم من كل مكان لأداء هذه المهمة، لم يكونوا كافين. بدون محاكمة، كان الرجال يرمون مكتفي الأيدي والأرجل حتى امتلأ نهر اللوار بالجثث التي بقيت هناك حتى تعفنت وهجَّرت الملك وحاشيته من القصر. منذ ذلك اليوم اندلعت الحروب الدينية التي دامت أكثر من أربعين سنة. هكذا البشر مونسينيور، لا يعرفون أن الله الذي منح الروح وقدسها، لا يمكن مسها إلا بالحق. أية قضية تساوي حياة إنسان وعزته؟ في كل الأديان شيء من التطرف يؤدي إلى هلاكها.

اندهش مونسنيور من ملاحظات الأمير الدقيقة. الأمير يختار الكتب التي تقرأ له من لغات أخرى بدقة متناهية. يتداول عليه كل من صهره ابن التهامي وبواسوني الذي لا يغادره إلا قليل، فقد وضع نفسه هو عائلته رهن الأمير.

- كلامك صحيح تماما ودقيق جدا.

- كنت أقاتل ليس فقط الفرنسيين ولكني كنت أقاتل حالة العمى التي كانت تصيب بعض خلفائي فيظنون أنهم ملاك الحقيقة فيكفرون ويقتلون من يشتهون. صحيح أن الحروب هذه هي، ولكن يمكننا أن نحد من جرائمها وانزلاقاتها حتى عندما تكون هذه الأخيرة عادلة في عمقها، أو على الأقل لها ما يبررها.

- الحديث معك شيق، ولكني هذه المرة جئتك وفي رأسي ما يتعبك فعلا. أسئلتي كثرت هذه الأيام ولكن على الأقل نيتي في الدفاع عن الحق مخلصة. عرفنا بعضنا البعض في أكثر الظروف حساسية يوم تبادلنا الأسرى. لم أرك ولكن من رسائلك عرفت أنني كنت أمام رجل كبير لم يفهمه الفرنسيون والعرب معا. البارحة قضيت الليلة بكاملها أعصر دماغي ووثائقي عبثا ولم أجد جوابا مقنعا لقصة النسخة الخفية من معاهدة دوميشال. فهمت من الوثائق التي بحوزتي، أن نسخة ثانية خبئت عن المسؤولين الفرنسيين. أنا لم أفهم كيف يمكن لإنسان ائتمن على منطقة بكاملها أن يفعل ذلك. لقد نفى ذلك وبعض أتباعه يتهمون التجار اليهود بأنهم كانوا وراء هذه النسخة لتسهيل تجارتهم في الأسلحة والقمح والبارود مع مضيق طارق والإنجليز وحتى مع بعض الموانئ الفرنسية. أنت تعرف أنهم سادة التجارة والحيلة.

- أعرف جيدا ما ترمي إليه. ابن دوران كان يتحرك باسمي ويستشيرني في الصغيرة والكبيرة. التهمة من هذه الناحية غير مبررة وأتحمل مسؤولية كل ما حدث. صحيح أنه عندما منع من تسويق الحبوب، أظهر ورقة رسمية باسمي، تسمح له بالتعامل التجاري في ميناء وهران. وصل الأمر إلى حاكم الجزائر فكبر الأمر وجعل منه قضية معقدة مع أني شرحت في رسائل عدة حسن المقصد. وتم تعويض دوميشال بتريزل رئيس قيادة الأركان وقتها. يبدو لي أن المسألة في عمقها كانت أكبر من هذه الأشياء الصغيرة. الصراعات بين الضباط الاستيطانيين الفرنسيين والذين يبحثون فقط عن الساحل لتأمين تجارتهم كانت على أشدها. الفوضى كانت أولا في أذهان القادة وربما حتى ملك فرنسا: ماذا يفعلون بهذه الممتلكات التي اكتشفوا فجأة أنها ليست صحراء قاحلة لا شيء فيها إلا البحر. دوميشال ذهب ضحية سياسة مهادنة. كان طيبا وإنسانيا في عمقه.

- عظيم أن تتكلم عن خصمك بهذه الطريقة. لم يشكك دوميشال في نزاهتك أبدا ولكنه يضيف في دفاعه أن الورقة المقدمة من طرف بن دوران ليست إلا وثيقة مزورة.

- الأمور كانت واضحة بالنسبة لنا والأدلة واضحة. عندما اتصل بي الحاكم العام الجنرال دروي ديرلون[39] أكدت له على صدق النوايا. هناك شهود منا ومنهم، ابن دوران والكابتن دو سان-هيبوليت[40] المكلف من طرف الحاكم للتأكد بالعين المجردة من صحة الأختام والوثيقة وعاد لقادته بنفس التأكيدات. تأسفت على الجنرال دوميشال وما كان يحدث له. الأمر كان يخص فرنسا وحدها ولم يكن لدي حق التدخل. عندما شعرت بالرغبة في نكث العهود، بعثت برسالة إلى الحاكم العام وقلت له بالحرف:

37 La chapelle de Saint-Hubert

38 Le maréchal Vieilleville

39 Le gouverneur général Drouet d'Erlon

40 Le capitaine de Saint-Hippolyte

أعرف قواعد المملكة الفرنسية وأعرف كذلك أنه إذا كان الفرنسيون أقوى من أمم أخرى فلأنهم لا يخالفون عهودهم. من هنا من الصعب تدمير معاهدة وقعتها شخصية كانت تملك كل الصلاحيات ومعروفة من طرف الجميع.

مد مونسينيور ديبوش يده عميقا في زوادته الجلدية التي تصحبه دائما وأخرج منها قصاصة صحفية مطوية عدة طيات ثم التفت من جديد نحو الأمير.

– على ذكر الكابتن دو سانت–هيبوليت هل تعرف ماذا قال فيك بعد أن أكد على صدق كلامك. أقرأ على مسمعك ما كتبه عنك:

الأمير رجل مدهش. هو في وضعية أخلاقية لا نعرفها جيدا في أوروبا. رجل زاهد في شؤون الدنيا ويظن أنه موكل من طرف الله بمهمة حماية رعاياه. حلمه ليس الحصول على مجد والهدف الشخصي ليس من مهامه وحب المال لا يعنيه أبدا. ليس ملتصقا بالأرض إلا وفق ما يمليه عليه الله فهو أداته.

– شكرا. صحيح، لم أكن أكثر من أداة طيعة في يد الله. أعود إلى دوميشال مونسينيور. لدينا مثل شعبي يقول: الجمل عندما يسقط يكثر ذباحه. مثله مثلي، الذين كانوا ضد السلام كثر وكانت تجب مقاومتهم وقمت بما كان علي فعله وكدت أقتل في الحناية لولا تدخل الميلود بن طالب أحد أبناء عمي وموت حصانين كنت أمتطيهما، فقط لحماية الوعود التي قطعتها على نفسي. المشكل لم يكن في السلام، في الحروب يوجد دائما رجال يجنحون نحو الخير، ولكن في ما بعد السلام. وأؤكد لك اليوم أنه لا توجد إلا نسخة واحدة هي تلك التي وقعنا عليها جميعا وعملت على تطبيقها حرفيا. ولم أخرج أبدا عما تم الاتفاق عليه. أعرف أن الجنرال دوميشال كانت له ظروفه الخاصة ولكنها تخصه ولا تخصني. الاتفاقية محفوظة ويمكن الاطلاع عليها وموقعة من الطرفين وهذا الرجل أقدره بل وأجله وربما كان من القلة القليلة التي سبَّقت السلم على الحرب ولكن في أوضاع قاسية كتلك لم يكن إلا قانون السلاح والموت ولو انتصر دوميشال لتغير كل شيء في البلاد ولاختصرنا سنوات عديدة من الظلمة والدم.

– لكن لماذا كذب؟ ألم تضعه أنت في وضعية الضعف بتدقيقاتك؟

– كنت أدافع عن شعب احتلت أرضه وسلبت خيراته فقط. وكان علي أن أحتاط، أنا لا أعرف دواخل الناس. ثم كيف أقنع قبائل كانت مستعدة لفعل أي شيء لاسترداد حقوقها؟ رؤية دوميشال كانت بعيدة وقوية بينما رؤية تريزل كانت قصيرة ومحدودة لأنها استندت على القوة وهي لا تعرف أن القوة تولد لدي الآخر الضعيف قوة مضادة أعنف. الضعيف قد لا يربح الحرب ولكنه قادر على الأذى والضرر والقسوة. الإنسان عندما يدفع نحو اليأس، يصير أعمى، يقتل بدون تمييز. أحيانا أشعر أن دوميشال كان ضحية لعبة أكبر منه ومني. دوميشال أكد بنفسه أنه في ٢٠ فبراير تعمق مليا في الوثيقة الملحقة بعد أن قدم له بن عراش كل وثائق الاتفاق الأصلية وكان ذلك بحضرة المترجم السوري وابن دوران وكيلي في الجزائر ومساعده الكابتن لاقوندي[41] والسو ليوتنان أليقرو[42] ووضع عليها ختمه. هذه الوثيقة الملحقة تم تدميرها أو ضاعت، الله أعلم.

– لكنها قضية كبرى وخطيرة لأن عليها ستتأسس الحرب فيما بعد والجراحات الناتجة عن ذلك. يقولون أنك اخترقت القواعد المتفق عليها. خرجت عن حدود القطاع الوهراني وسرت باتجاه حدود التيطري وهذا يقع خارج حدود الاتفاق. نكثت المعاهدة، بشكل أكثر اختصارا.

– سادة الحرب يقولون ذلك. مثل عندنا وعندكم يقول، إذا أردت أن تتخلص من عدوك، اتهمه بالكلب. الأمر بسيط جدا، اطلعوا على التقسيمات التي قامت بها فرنسا وسترون أن هذه المنطقة تابعة للقطاع الوهراني. لم أتجاوز أبدا حدودي. العسكريون كانوا على علم بكل تحركاتي، ومرسى أرزيو لنا حق الاتجار فيه بمقتضى المعاهدة ولي ممثلين في المرسى كما لدوميشال كذلك. لكن رجالات الحرب والتوسع كانوا الأقوى وذاك قدر الله عز وجل. ماذا تستطيع أن تقول عندما تكون كلمة البارود هي المسموعة.

– أنا أريد أن أقنع رئيس الجمهورية وأريد أن آخذ كلامك كحجة صادقة. أعرف أن دينك وسيرتك الكبيرة يحتمان عليك الصدق ولهذا أسأل وأشدد على السؤال.

– تعرف يا مونسينيور أن مصير الأفراد قد لا يكون مهما كثيرا أمام صورة البلدان العظيمة. يحزنني أن يتحول بلد الحرية والانفتاح إلى سجن كبير للآخرين. أنا كنت في حاجة إلى المعاهدة لبناء سلطان المسلمين في تلك المنطقة ولم تكن لدي أهداف أخرى. كنا في وضع يتحرك بسرعة تتجاوز ما كنا نطمح إليه. كان في نيتي أن أحرر بلادا تحت نير استعمار قاس على البلاد والعباد ولكني استرحت للحقيقة القاسية التي لم أكن متحكما فيها، فانصعت لأقدار الله. ارتباك السلطات الفرنسية نفسها في ذلك الوقت لم يسهل المهمة أبدا، فقد كانت بين احتلال بعض السواحل لاتقاء شر القراصنة وتسهيل مرور تجارتها والاستيطان الكلي.

ساد صمت كبير عندما انسحب الأمير للوضوء والصلاة. تساءل مونسينيور وهو يرشف ما تبقى في كأس القهوة بتلذذ كبير ملتفتا نحوي.

– أرأيت يا عزيزي جون؟ هل هذا رجل ظلم وضغينة؟

– لا يبدو عليه ذلك مطلقا يا سيدي. كل ما فيه يوحي بأنه في مكان ليس له ويحس بظلم كبير نزل عليه وعلى ذويه. ثم أن سيرته ليست جديدة عليك.

– أعرف أنها ليست جديدة، ولكن ما هي اللغة التي يمكن أن نقنع بها نابليون الذي سار كل شيء بيده بعد ذهاب الملك. يستطيع أن يأمر فيطلق سراحه. ولكن محيطه لا يبعث على الارتياح أبدا.

– شيء يقول لي أن الأمير يخفي أكثر مما يظهر حتى لا يؤذيك، الألم الكبير باد في لون عينيه. أحيانا يبدو لي كالأسد الذي قلمت أظافره ووضع وراء القضبان.

– السنوات القاسية لم تعلمه إلا الصبر مثل عظماء الشهداء المسيحيين الذين تلقوا آلام الموت مقابل إنقاذ الذين يحبونهم.

عندما عاد الأمير، جلس قبالة النافذة المغلقة. اندهش مونسينيور مرة أخرى:

– لم لا تفتح النافذة، المؤكد أن هواء الخارج يبعث على قليل من الراحة ويزيل قنوط الحبس والاعتقال؟ هذه الحدائق الجميلة برز فيها الإنجليز، لقد جُلبوا من وراء البحر فقط لأداء هذه المهنة. هم سادة الشأن في هذا الموضوع.

– أرى ماذا؟

– القصر والحدائق، يبدو أنك لم تسمعني؟

– لا أريد أن أعوِّد نظري على رخاء يؤذيني أكثر مما يريحني. ومع ذلك، الجمال موجود في عمق الأشياء. بمجرد إغماض عيني، أستطيع من وراء هذا المكان وعلى الرغم من الستائر الخشنة والنوافذ الخشبية الثقيلة، أن أرى سهل اغريس بوحله وأمطاره وتربته والخيل التي تعبره يوميا والساحات الواسعة التي لا يحدها بصر، وهذه مونسينيور لا يستطيع أحد قهرها فينا إلا الموت. هل تستطيع أن تقول لي أنك لا ترى الجزائر كلما وضعت رأسك على الوسادة وأغمضت عينيك؟

لم يقل مونسينيور شيئا ولكنه صمت مثلما صمت الأمير من قبل. رأيت في عينيه اشتعالات يتامى الجزائر ودم رجليه وهو ينزع الحذاءين مساء مصحوبا بجلدة القدم التي بقيت ملتصقة بعمق الحذاء الأيمن من كثرة الركض بين مختلف الأمكنة للاطمئنان على من هم في حاجة إليه، وبحر مصطفى الذي خرجنا منه لآخر مرة مثل الفارين على متن قارب قديم ومتآكل قبل أن نلحق بالسفينة التي كانت راسية في عمق البحر. كان يومها كل شيء قد فقد لونه، السماء اسودت حتى صارت مثل الغار الذي لا قرار له والبحر لم يبق به إلا الماء، بلا لون ولا ملوحة ولا طعم.

– الجزائر... تمتم مونسينيور أنطوان ديبوش... تلك قصة أخرى. قصة أخرى أكثر تعقيدا مما نحسه الآن... ليكن...

ثم أحنى رأسه قليلا وأغمض عينيه.



41 Lagondie
42 Le sous-lieutenant Allegro

-٢-

دارت أحصنة المقدمة حول نفسها طويلا ثم رفضت الدخول في النباتات المتوحشة القزمة من الديس والحلفاء والمارمان والسدرة. لجم السايس الحصان الأول لكي يتخطى الحواجز التي لا تعيقه عادة، فعززه الأمير.

– الأحصنة عندما ترفض التقدم، أدرك أن أمامها شيئا هي تراه وأنت لا تراه. إما عائق طبيعي أو خطر داهم.

– الديس والحلفاء والمارمان تتخطاها الخيل عادة بدون تردد، لكن هذه المرة؟ أنت سيد العارفين يا سيدي.

– وهذا يعني أن العائق غير طبيعي.

أضاف الخليفة مازاري الذي، على الرغم من جرح الكتف، جاء ليسند الأمير.

و قبل أن ينهي كلامه خرج الرسولان من بين الأشجار والنباتات، ملفوفين في برنسيهما الصوفيين الأسودين. اتجها مباشرة نحو الأمير وخليفته. سحبهم نحو الخيمة التي كانت قد نصبت قبل أن تغرب الشمس:

– يا أمير المؤمنين، تريزل[43] الذي حل محل دوميشال، يطحن كل شيء في طريقه. لقد أحرق قبائل غرابة وبعثر محصولاتها وسيضطر السكان هذه السنة إلى أن يغيروا على غيرهم أو أن تمدهم بما تستطيع. لقد أخذهم على حين غفلة. يقولون إن تريزل حفظ الدرس جيدا وعرف قصدك من كلامك «**لن يدخل طير إلى وهران بدون علمي**» ، يعرف أنك ستسيج المدينة ولهذا يحاول أن يسبقنا إلى كل شيء. مصطفي بن اسماعيل لم يتوقف عن المناورة.

– وخليفة غرابة ولد خليفة؟ سأل الأمير الرسول الثاني؟

– لم يفلح معه تريزل، فقد قال له أني تحت إمرة سيدي أمير المؤمنين، السلطان عبد القادر. تريزل يستنهض القبائل البعيدة ضدنا.

– مليحة هذه. يخترقون الاتفاقيات ويتهموننا بالتعدي. لن أبعث أي شيء حتى يعود الحاكم العام من سفرته وأستفسره عن الأمر. معه الأمور ستكون أكثر ثباتا وأكثر جدية. وإذا اضطررنا لفعل ذلك، سأبعث برسالة احتجاج وألحقها بتأكيد سيكون بمثابة إعلان حرب.

منذ ٢٦ جوان وقواتهم تحط رحالها في نفس الأمكنة، على ضفاف نهر السيق، في نقطة الربط بين وهران ومعسكر. المكيدة ظاهرة للعيان. يبدو أن تريزل مصمم على الذهاب بعيدا في عدوانه علينا.

– يجب أن نرد عليه يا سيدي بالشكل الذي يستحقه.

حتى الفجر الأول، كانت قوات تريزل ما تزال تحصن مواقعها وتحتل منابع المياه للسيطرة على كل ما هو حيوي.

تأمل الأمير وقواده حركة العساكر من أعالي الجبل المطل على الوادي.

– قواتهم منظمة وعيبها الكبير أنها ثقيلة وربما هنا مقتلها الأساسي. وإذا كان من حل أو من هزيمة لها فلن يكون إلا من هذه الزاوية.

– أعتقد أنهم يريدون ترهيبنا فقط بهذا الاستعراض الكبير.

تمتم أحد الخلفاء الذي ظلت عيناه مرتشقتين في حركة المدافع التي كانت تحوط بالفرق الموزعة على طول الضفة الجنوبية من النهر.

– لا أعتقد. الجنرال تريزل جاد في تحركه وهو هنا لسحقنا. أنا متأكد أنه وطئ على أوامر الجنرال دروي ديرلون الغائب حسب مصادرنا عن وهران. لقد جاء إلى هنا وفي رأسه تنفيذ مشروعه القاضي بتأديبنا. الضباط الذين عرفتهم أذكى من هذا الرجل.

قبل أن ينتهي الأمير من كلامه، كان الآغا المكلف برقابة الجهة اليمنى من الجبل قد وصل مع خيالته. انزلق بسرعة نحو خيمة الأمير الذي كان في حوار مع خبيريه الإيطاليين في الأسلحة الثقيلة والمدفعية وخلفائه وعدد محدود من ضباطه ومستشاريه. جلس قبالته وهو يحاول جاهدا أن يسترجع أنفاسه:

– قل لي بدقة عدد قواتهم.

– عددهم يتجاوز ٣٠٠٠ لآلاف عسكري، مدججين بالأسلحة. فيلق الفرقة ٦٦، فيلق المدفعية الإفريقية الخفيفة، فيلقان من اللفيف الأجنبي، الفيلق الثاني للرماة الأفارقة على الخيول، مدفعان متحركان وأربعة من النوع الصغير السريع الحركة وأكثر من أربعين عربة. لا نعتقد أنه جاء للعب أو فقط للتأديب.

– واضح جدا. رأينا ذلك من أعالي الجبل.

منذ الفجر الأول وحتى المساء والجميع يتتبعون من الأعالي حركة جيش الجنرال تريزل الذي كان ينظم مواقعه ويحتل الأماكن الاستراتيجية جنبات نهر سيق، تحت شمس ظلت مشتعلة حتى المغيب. في البداية توزعوا في شكل وحدات صغيرة تحت قيادة الكولونيل أودينو. كتيبتان للرماة، ثلاث مجموعات من المشاة ومدفعان خفيفان وضعا على الجهة اليمنى من الفيلق ٦٦، الفيلق الإيطالي للفيف الأجنبي. الخلفية كانت مدعمة بفريق من الخيالة الخفيفة الإفريقية وكتيبة بمدفعين جبليين يقودها الليوتنانت كولونيل بوفورت[44] الذي كان مثل الثعلب يتشمم كل الحركات ولا يتوانى عن الرمي حتى ولو صدر ذلك عن أرنب أو أي حيوان مذعور.

على الساعة السابعة بالضبط وعندما تمت كل الترتيبات الأخيرة، بدأ الزحف نحو غابة مولاي اسماعيل ذات الأشجار الكثيفة والنباتات المتوحشة والصنوبر البري والمنحدرات الكثيرة. أرضية صعبة تعيق حركة الآليات الزاحفة. وما كادت الفرق الأولى تتوغل في عمق الغابة حتى بدأت المناوشات الأولى.

كانت مجموعة الأمير المكونة من ٢٠٠٠ من المشاة و١٢٠٠ نفر من القبائل المحاربة الذين يساعدون على المقاومة، قد احتلوا أماكنهم وراء الأشجار العملاقة وحوطوا المرتفعات المطلة على جيش تريزل. أعطى الأمير الأمر بالهجوم. كانت المدفعية مندسة وراء الأشجار والصخور العالية بينما توزع الخيالة إلى فرق صغيرة لتكون حرة أكثر في حركتها. الغابة والشقوق والمنحدرات، صعبت كثيرا من مهمة الجنرال تريزل. حاول الكولونيل أودينو أن يفك الخناق بواسطة الرماة ولكن رصاصة اخترقت جبهته فسقط بدون حراك حتى قبل أن تصل المعركة إلى حالتها القصوى. أحدث ذلك هلعا ورعبا كبيرين في مختلف الفرق التي حاول تريزل أن يعيد تجميعها وترتيبها، في الوقت الذي كان فيه نافخ البوق قد بدأ يعلن عن التراجع. استطاع تريزل وبصعوبة كبيرة أن يخرج من مضيق الغابة وينسحب نحو السهل وينصب هناك خيامه.

أعاد الجنرال تريزل ترتيب كل قواته من جديد. شعر بأن الوضع كان أكثر تعقيدا مما تصوره مع قواده وأن عدد الأسرى كان مرتفعا وهو لم يقدم بعد على الحرب الفعلية. في لحظة من اللحظات فكر في الدخول في مفاوضات مع الأمير لتبادل الأسرى ولكن الفكرة بدت له غير سليمة. في منتصف النهار من اليوم الموالي، أخلى الأمكنة وبدأ يهيئ نفسه للعودة من حيث أتى. كان عدد الموتى والجرحى كبيرا مما اضطر تريزل إلى إفراغ الكثير من العربات من الخيام والمؤن وملئها بالجرحى. تحركت القافلة باتجاه مدينة سيق للتوقف على حوافي النهر القريبة من المدينة وترفع مخيمها بالشكل الرباعي المعتاد. بينما نصب الأمير خيامه ليس بعيدا عن نفس المكان. وبدأت الحركة تدب بين المعسكرين. في الليل وبعد مراسلات عديدة، تم الاتفاق على تبادل القناصل. القنصل الجزائري كان محملا برسالة استغربها الأمير كثيرا. فقد طلب تريزل من الأمير الاعتراف باستقلالية الدوائر والزمالات والغرابة وكروغلي تلمسان والقبول بتبعيتها للتاج الفرنسي والتوقف النهائي عن المطالبة بالأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر الشلف وإلا فلا مناص من الحرب التي ستحرق الأخضر واليابس.

استغرب الأمير وهو يتحدث إلى الخليفة مزاري:

– غريب أمر هذا الرجل، المهزوم عادة يطالب بما هو مستطاع؟ أتساءل إذا ما كان لهذا الرجل علاقة بالحرب وبالمفاوضات. أشك حتى في سلامة عقله.

– ماذا نفعل يا سيدي تجاه طلبه، سأل كاتب الأمير.

– ارتح. هذا الرجل يريد الحرب واخترق اتفاقية بكاملها، سيجيب عن هذا العدوان أمام رؤسائه. سأبعث برسالة إلى حاكم الجزائر عن طريق ابن دوران، فهو أقرب إلى العقل والصواب. الآن، يبدو أن تريزل سيتجه نحو أرزيو لفك الطوق وعلينا أن نمنعه.

استدعى الأمير رؤساء الفيالق والخلفاء والأغوات والقواد الذين رافقوه في الحملة وبدأ يعرض عليهم ما يجب فعله حول مواصلة الهجوم. لكن أحد القادة الحميان من الذين يعرفون تضاريس الأرض جيدا تدخل واضعا أمام الأمير احتمالات كثيرة من بينها إمكانية مرور تريزل على على هضاب حميان:

– يا أمير المؤمنين، هذا الرجل عنيد وعندما يصمم العنيد على فعل شيء، يركب رأسه. قواتهم إذا واجهناها ستحدث في صفوفنا خسارات كبيرة ولكننا نستطيع بقليل من الحيلة أن نجرهم نحو سبخة المقطع لتعطيل عمل العربات نهائيا ومدفعيته القوية.

– لكن هذا كله مربوط بحركة قوات الجنرال تريزل ولهذا وجبت المناوشة لجرهم نحو هذا المسلك الذي يقود نحو مهاو كبيرة تنتهي كلها في سبخة المقطع التي تصعب من مهمة المسافرين وتنقل العربات وأحيانا حتى الأحصنة المدربة.

– الجنرال تريزل ليس من الصنف السهل الذي يترك الأشياء في منتصفها، تدخل أحد سجناء الأمير الذي جيء به ليقدم توصيفا كاملا عن جيش تريزل وضباطه، هو مصمم على كسر شوكة جيش السلطان والعودة بانتصار كبير إلى رؤسائه ليقنعهم بضرورة الحرب وجدواها. الهزيمة تعني ببساطة موته العسكري.

– مشكلة هذا الصنف من القادة، أنه على صواب دوما أو على الأقل هكذا يشعر، تدخل أحد معاوني الأمير من البولونيين الذين اختاروا الإسلام وطلبوا حماية الأمير. السجناء يؤكدون هذه النزعة المتسلطة فيه وعقدة قهر السلطان. كسر قوة الأمير وخيارات الضباط الفرنسيين الذين جنحوا للسلام، هو انشغاله الأساسي.

كان الأمير قد بعث فرقا صغيرة ونصبها كرأس حربة في كل الأماكن الاستراتيجية بعدما تأكد من صحة كلام القائد الحمياني وبدأ في المناوشات الأولى لجر عساكر تريزل نحو عمق المقطع.

الهجوم الأول كان مفاجئا وصاعقا. الخيالة اخترقوا معسكر تريزل كالريح الساخنة، ساحبين في أثرهم الأتربة والأوراق الميتة. لم تسمع إلا حركاتهم وزفهم والطلقات النارية الكثيفة قبل أن يمضوا عميقا في فراغ الأدخنة والغبار ويتلاشون نهائيا عن الأنظار مخلفين وراءهم صرخات مكتومة وصهيل الأحصنة الذي لم يتوقف. موجات أخرى من الخيالة هاجمت من الجهة اليمنى واليسرى محدثة نفس الرعب، متفادية مواقع المدافع التي وجدت صعوبة كبيرة في التوجه نحو المهاجمين. فجأة انفصلت مؤخرة جيش تريزل عن الميمنة والميسرة، مما دفع بالمقدمة ذات الأعداد الهائلة والعتاد الثقيل إلى التوغل عميقا في السبخات الخادعة التي كانت تبدو في ظاهرها مجرد أرضية اعتيادية وأتربة وأحجارا زرقاء خلفتها سيول الوديان عندما تحمل ثم تجف. أعطى تريزل أوامره لقادة الأسلحة الثقيلة والهندسة العسكرية بالدوران حول نفسها وتغطية ظهر وصدر القوات التي بدأت تتمزق بعنف وتتحول إلى فرق صغيرة معزولة.

43 Treizel

44 Le lieutenant colonel Beaufort

دارت العربات والمقطورات في مكانها في محاولة يائسة لدرء الهجمات الأولى ولكن توغلها في السبخة جعل حركتها صعبة ثم مستحيلة. كلما حاولت أن تتقدم أكثر، زادت العجلات انغماسا وغرقا في عمق التربة الرجراجة. وبدل أن تتوقف الكتائب عند هذا الحد، حاولت أن تتعمق أكثر لتدرك الضفاف التي كانت تبدو سالكة. العربات الثقيلة التي كانت على رأس الرتل، تحولت إلى كتل حديدية لا دور لها إلا استعمالها كآليات وقاية من وابل الرصاص. على الجهة اليمنى من الضفة، كان أكثر ١٠٠٠ فارس أميري يركزن هجماتهم على قلب القافلة التي لم تفلح في الخروج من الغرق في السبخة. حتى المدفعية الثقيلة لم تعد لها أية فائدة باستثناء بعض القطع الخفيفة التي ظلت ثابتة في أمكنتها، لكن كثافة البارود ورائحة العفن المتأتية من الوادي والسبخة والنباتات الغاملة والمياه الآسنة جعلت الكثير من فرق العربات تقطع الروابط وتحرر الأحصنة وتحاول أن تهرب، مما جعل الأدجودان فورنييه[45] يشهر مسدسه ويضعه على الصدغ الأيمن لسائق العربة:

– لا تضطرني إلى تفجير رأسك.

– لكن يا سيدي كلهم هربوا وإذا بقينا هنا سنموت بكل تأكيد.

– وماذا نفعل هنا في اعتقادك؟ وهل التخلي عن موقعك ينجيك؟ سيذبحونك مثل الخنزير. والجرحى الذين يئنون بداخل العربة؟ روحك أثمن من أرواحهم؟ الأحسن لك أن تلزم مكانك وأن تحاول إنقاذ عربتك مع ما تبقى بجانبنا من بشر وأحصنة وآليات.

ثم انكفأ فورنييه مع بقية الجند وحاول الجميع أن يخرجوا العربة ويحرروها من الأوحال والحفر ويخرجوها من الغرق وينقذوا العشرين جريحا الذين كانوا بها. لكن الكثير من المشاة الذين وجدوا أنفسهم بين المقطع ومياه النهر المليئة بالأتربة والأوحال والأشجار الميتة والنباتات المتوحشة والأحصنة الغارقة، اضطروا إلى أن يلقوا بأنفسهم في النهر لتجنب هذه الفوضى الطبيعية العارمة، فغرقوا من كثرة ثقل المياه. الشيء الوحيد الذي بقي تحت سيطرة تريزل هو المدفعية الثقيلة التي لم تتورط في السبخة. أما القطع الأخرى إما دمرت أو أن عساكر الأمير استولت عليها. ترك تريزل وراءه كل شيء، الألبسة والأغطية والأكل وحتى الكثير من السيارات المليئة بالجرحى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. على أطراف النهر وعلى الرغم من صرخات الخيالة، فقد انهمك الكثير من مشاة الأمير في النهب وقطع رؤوس الجرحى وأخذ الألبسة والأكل بينما كان تريزل يحاول أن يجمع قواه ويخرج من عمق السبخة. الكثير من أصوات الضباط ظلت تصرخ من أجل التوجه نحو طريق مستغانم فهي أكثر أمنا لكن الجنرال تريزل استطاع في الأخير أن يخرج هو ومن بقي معه من الجهة المعاكسة ويتوجه نحو طريق أرزيو بعد أن أعاد ترتيب ما تبقى من قواته. المجوعة الأمامية الصغيرة، وسط الضجيج ودوي المدافع وصهيل الأحصنة والبارود، لم تسمع أمر الانسحاب، وجدت نفسها داخل كماشة ليسحقها بارود المدافع وبنادق الأمير، فتمزقت إربا إربا على الرغم من محاولات التجمع الفاشلة. التحق الباقي، الذي استطاع أن يخرج من الجهة الأخرى من أوحال السبخة، بالفيلق ٦٦ وفرقة الخيالة التي كان يقودها الكابتن برنارد[46] مدعما بما تبقى من قطع المدفعية التي استطاع قائداها الكابتن ألُّو والليوتنانت باستوري[47] أن يجمعاها ويحميان فرقة المشاة الهاربة من السبخة للانضمام إلى بقية الفرق التي كانت قد انتظمت من جديد للسير باتجاه أرزيو.

كان الأمير قد توقف عن المطاردة وبدأ يتأمل المشهد من بعيد. تدخل الخليفة مازاري وهو يحاول أن يمسح وجهه من الأتربة التي اختلطت بالعرق على وجهه ويضغط على جرح الظهر الذي عاد إلى النزف من جديد:

45 L'adjudant Fournier
46 Le capitaine Bernard
47 Le capitaine Allaud et le lieutenant Pastoret

– سيدي، هل نواصل الهجوم، فهم منهكون. سنذبحهم بسهولة.

– هذا الدرس يكفي بالنسبة للعاقل. الحرب ليست القوة فقط ولكن الحكمة كذلك عند الضرورة. أعتقد أن الجنرال تريزل يعرف الآن أن القوة وحدها لا تكفي لحل المعضلات الكبرى. عاقبه الله بهزمه وسيعاقبه حكامه بعزله. عرفت من الضباط السجناء أنه سيجد نفسه مضطرا للإجابة عن أسئلة الحاكم العام. فقد خسر مدافع كثيرة وأكثر من ألف قتيل وسجين. هذا يكفيه إذا لم يكن مجنونا.

– ولكنهم في مرمانا يا سيدي ويمكن أن نبيدهم.

– نتوقف عند هذا الحد لأني أشعر أن الذين يفكرون مثل الجنرال تريزل صاروا اليوم قوة، فما ينتظرنا، الله وحده يعرف قسوته وصعوبته ومع ذلك فنحن طلاب حق. سيضطر تريزل إلى الدخول إلى وهران عن طريق السفن، فهو يعرف جيدا أن قبائل الغرابة تنتظره عند مداخل وهران وإذا سار برا، لن تبقى منهم أذن واحدة. أخاف أن تكون معاهدة دوميشال أو ما تبقى منها قد لفظت نفسها الأخير نهائيا في هذه السبخة.

– ماذا نفعل الآن يا سيدي.

– نتركهم وشأنهم ونرفع الخيام. كل مجوعة تعود إلى مواقعها الأولى. ومع ذلك يجب الحذر. هذا الانتصار سيدفعهم نحو حقد أكثر. لم نكن البادئين. دافعنا عن أنفسنا فقط.

انطلقت المجموعات بنظامها المعتاد، المقدمة والميمنة والميسرة والمؤخرة التي تحمي ظهر الكل، باتجاه ضفاف نهر السيق قبل أن تنقسم إلى مجوعات صغيرة، كل واحدة سلكت طريقا خاصا يقودها نحو قبيلتها بينما عاد الأمير إلى معسكر حيث كان الناس ينتظرون عودته على وقع الزغاريد والأناشيد والابتهالات ولكن الأمير كان قد أعطى أوامره بأن يكون الاستقبال بسيطا والاستعداد لأيام قاسية كانت تلوح في الأفق.

عند مدخل المدينة أخبره رسوله إلى المتيجة أن خليفة مليانة قد نزل على رأس ٥٠٠٠ فارس وأجلى الفرنسيين من السهل واستعاد كل الأراضي الزراعية وضم إلى صفوفه قبيلة الحجوط بدون خسارات تذكر.

هذه الأخبار بقدر ما أفرحت الأمير أكدت له أن المعاهدة انتهت وأن الحرب بدأت تلوح في الأفق. طلب من مقربيه وعائلته أن يتركوه وحيدا لينام قليلا. لم يكن يبدو على وجهه ألقه المعتاد وكأنه قادم من معركة هزم فيها ولم ينتصر، ولم تعكس عيناه الزرقاوان مياه وادي الهبرة ولا السهول المحيطة بقصر الباي. شيء ما لم يكن يسير على طبيعته. كان يدرك جيدا أن مصانع البارود التي بدأ العمل بها وورشات الأسلحة ليست إلا في مراحلها البدئية بعد المفاوضات الشاقة مع الإيطاليين والألمان.

– بناء الدولة يحتاج إلى حالة استقرار. ما تزال العصبية القبلية هي سيدة العلاقات وهي التي تحرك الناس. كل واحد يظن نفسه هو سيد نفسه.

وعندما أراد مصطفى ابن التهامي أن يسأل الأمير عما يجب فعله، سحبه بهدوء من يده وأدخله معه إلى قاعته الخاصة، ثم طلب منه الجلوس قبالته بعد أن سحب كتاب التوحيدي: الإشارات الإلهية ووضعه في حجره:

– يا السي مصطفى، الحرب مع تريزل كسرت القشة التي ارتبطت بها للحفاظ على السلم. الناس لا يعرفون شيئا آخر غير الحرب والغنائم. كيف يمكن تجميع كل الأسئلة والخلافات ضمن دائرة واحدة؟ قال الأمير مرة أخرى وهو يتمدد قليلا على الفراش.

– الدين أيها السلطان. الدين يوحد القلوب.

– الدين يجمع ولكنه يفرق أيضا. يوم وقعت المعاهدة مع دوميشال، الكثير من أبناء جلدتنا وقفوا ضدنا بحجة المصالحة مع دار الحرب. أية مصالحة عندما تكتشف فجأة أنك تنام على كذبة كبيرة اسمها القوة. وسائلنا مضحكة أمام جبروتهم. كل إرادات الدنيا لا تكفي. تذكر حماس محمد علي في مصر. لقد أدرك في وقت مبكر أن عليه أولا غلق الممرات مع الباب العالي نهائيا وبدء التفكير في بناء دولة تتأسس على المعرفة والعلم. الفرق بيننا وبينهم أن نابليون خرج تاركا الأحلام معلقة في الهواء بينما يصر سلطان فرنسا على البقاء والتمركز نهائيا على هذه الأرض.

– ربما ستكون هزيمة تريزل درسا لهم.

– لا أعتقد. ستكون مبررا لأنصار الاحتلال الكلي للبلاد للانقضاض نهائيا على ما تبقى من معاهدة دوميشال. أصبحت طبول الحرب تقرع نهارا وجهرا ولم يعد أحد يتحدث عن السلم إلا من قبيل الحديث عن ماض لم يعد موجودا إلا في الذاكرة. تريزل ليس إلا الوجه الظاهر للأزمة.

– صحيح أن آلتهم الحربية أقوى من آلتنا، لكن شوكتنا ستزداد حدة.

– أية شوكة يا السي مصطفى وأنت سيد العارفين. إذا لم نبن آلة حربية موازية لآلتهم أو على الأقل قريبة منها سنظل تحت رحمتهم. صحيح أننا سنقاوم باستماتة ولكننا سنخسر الحرب إن آجلا أو عاجلا.

– وماذا يجب أن نفعل.

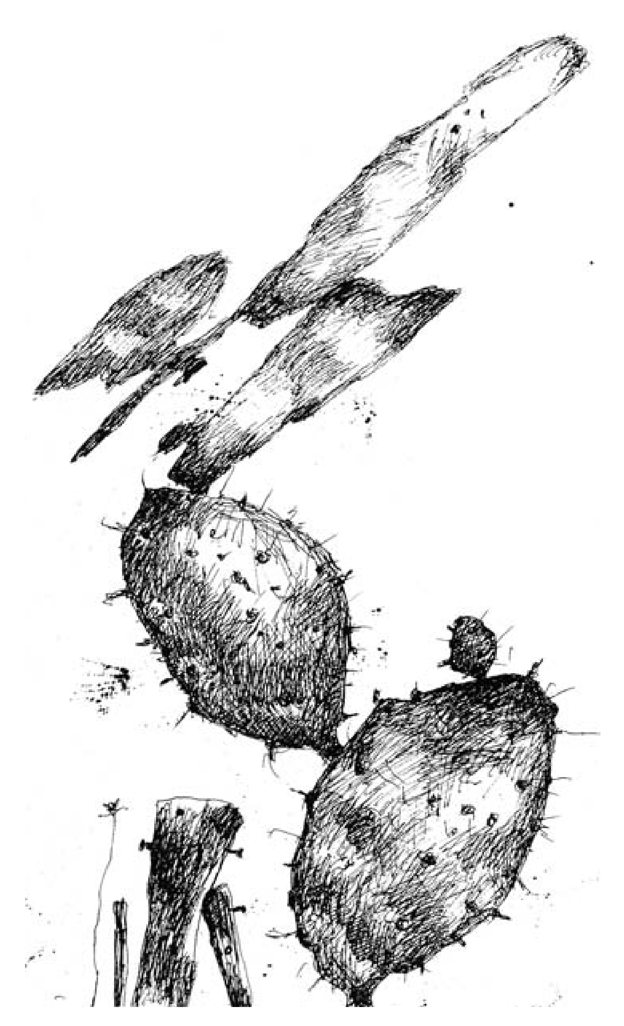
– أن نهيء الناس لمغادرة معسكر وكل الضواحي المحيطة بها وأن يستعدوا لرحيل الله وحده يعلم متى ينتهي. لقد بدأت الحرب من جديد.

– أراك يا سيدي متشائما وكأننا هزمنا في حرب ربحناها.

– ربحنا الحرب ولكنهم أجبرونا على خسران معركة السلم. لدي الإحساس كأنني دفنت عزيزا غاليا على القلب. هذا ما لدي. القلب كان ممتلئا وكنت أريد أن أعلمك بما أشعر به وربما كنتَ أكثر تبصرا مني. سأرتاح قليلا مع التوحيدي، فيه الكثير مما يزهر الروح المتعبة.

– وهل نحضر الناس لإخلاء المدينة عند الضرورة؟

لم يسمع سؤال مصطفى بن التهامي، كان قد توغل في عمق البهو المؤدي إلى غرفة نومه، بعيدا عن كل شيء، بعد أن فتح كتاب الإشارات الإلهية في العلامة التي وضعها في آخر ليلة عندما فتحه، قبل شهرين بالضبط، على صفحة الغريب.



-٣-

٠١ أوت ١٨٣٥. على الرغم من حرارة الصيف القاسية والرطوبة الثقيلة، كانت السماء مغبرة وصفراء ولم يعد هناك أي مكان للزرقة. الرياح القوية ازدادت عنفا وحرارة، لا شيء في المدينة إلا الغربان التي كانت تبرز من حين لآخر، هاربة نحو أفق غامض.

هذه الأجواء الاستثنائية تأتي دائما بخوف ضامر وحالة من الارتباك والغموض. عندما استقرت السفن الثلاث في ميناء الجزائر، في الزاوية الأقل غليانا، كانت طبول الحرب قد توقفت وبدأت الحرب الفعلية. كانت الأمواج القاسية تلطم جنباتها التي ظلت تقاوم المياه البحرية في هذا الفصل الذي لا يبشر بخير كبير. دخلت المراكب الكثيرة لاستقبال الركاب وعتادهم. أربعة فيالق من المشاة والمدفعية وفرق الخيالة الضرورية والخيام وكل الأدوات اللازمة لنصبها والمستشفى الجديد.

قضى عمال البحر أكثر من نصف اليوم لمساعدة ألف ومائتي رجل للخروج وثمانمائة حصان التي جيء بها خصيصا لبعثها إلى مدينة وهران. لم يكن الحاكم العام درووي ديرلون راضيا على القرار المتخذ ضده. كان يعتبره عملية سياسية. قال لجاكينو[48] الذي كان يجلس قبالته في مقصورة الضيافة بالميناء:

– أتمنى لكلوزيل[49] حظا سعيدا ولكننا سنرى، إذا كان الرجل الذي عوضني سيعمل أفضل مني. لدي كل الحق في الشك الآن في انتظار إثبات العكس. الأمير ظل ملتزما بقرار الهدنة وكان يجب أن نواصل في نفس الخط وأن لا أن نفرض عليه الحرب.

– وزير الداخلية تيير[50] من تيار الاستيلاء الكلي على الجزائر وهو الذي فرض كلوزيل. الأمر واضح يا سيدي. أعمال كلوزيل في الجزائر لم تكن مقنعة ومع ذلك ها هو ذا يعود من جديد كأن شيئا لم يكن...

كانت الطلائع الأوروبية الأولى التي استقرت بالجزائر، تملأ المكان. كانت تنتظر رجلا آخر، أكثر صرامة وأكثر وضوحا، يفتح أمامها آفاق الزراعة واستغلال التربة واليد العاملة الرخيصة التي لا تنتظر إلا من يمنحها فرصة العمل. فالأراضي الواسعة لا ينقصها إلا من يفلحها ويعمل على إصلاحها.

بعد أن حيا كلوزيل السلطات العسكرية والمدنية وتبادل مع بعضهم بعض الكلمات الخاطفة قُدِّم له كأس قهوة تركية. كانت رائحتها تملأ الميناء. شربها بتلذذ كبير ثم صعد إلى المنصة برشاقة مفتعلة وألقى كلمته التي أعدها في رحلته:

– «يا سكان الجزائر، إن تعييني في حكومة الممتلكات الفرنسية في الشمال الإفريقي عمل له دلالة كبيرة عن نوايا ملك الفرنسيين الطيبة. ومهما كانت تعقدات الأوضاع التي تنتظرني، لي الثقة الكاملة بأني سأتوصل إلى فرض السلم بمساعدة الإدارة والسكان. أما الخارجون عن القانون، فسنعاقبهم بشدة مهما تكون رتبهم وأينما وجدوا. وسأعمل على تشجيع كل الأعمال الزراعية والتجارية في أجزاء كبيرة من هذه الأرض وجلب المزارعين الأوروبيين للاستفادة من خبرتهم لخدمة هذه الأرض...»

في أواخر المساء لم تبق في الميناء إلا أصداء التصفيقات التي دوت طويلا قبل أن تنسحب تاركة مكانها لعمل كبير وشاق لإفراغ بقية السفن المحملة بالعتاد والأسلحة الثقيلة والخفيفة والعربات الجديدة والمدافع. عندما سئل كلوزيل وهو يستقل سيارته عما هو فاعله، أجاب باقتضاب:

– هذه المرة لن تكون مثل شبيهاتها في المرات الماضية. نملك ما لا يملكه عدونا، الإرادة الحضارية والآليات الضرورية لحسم المعركة نهائيا.

عندما خفت الرياح الساخنة والمغبرة في الأيام التي تلت مجيء كلوزيل، كانت الغربان قد عادت إلى ضواحي المدينة وبحرها. فقد رآها بعض الناس تنقر ماء الباب الشرقية للعاصمة، ليس بعيدا عن مرسى السفن وهذا نذير شر. كلما حامت في غير أوقاتها تطيَّر منها الناس وشعروا كأن شيئا ما يتهيأ في الأفق. بعضهم اقترب منها في باب الجديد ورأى عيونها المدورة وهي تتضور جوعا وقسوة ومرضا. حتى عندما نشوها كما هي العادة لطردها وتفادي خزرتها الصفراء، لم تهرب ولم تغادر الأعالي التي التصقت بها إلا عندما صارت على بعد خطوة بينها وبين الناس.

بالنسبة للعارفين، فقد كان واضحا أن الغربان السوداء ذات العيون الصفراء البراقة، لا تدور هكذا في الفراغات الواسعة للمدينة. فهي لا تجلب من ورائها إلا الخراب والخوف والأمراض الفتاكة. يقولون أنها تتشمم المرض من بعيد ولهذا فهي تسبق نحو الأمكنة المصابة بوباء ما حتى تكون قريبة من غنائمها. فقد بدأت أولى عوارض مرض الكوليرا تظهر في الأحياء الشعبية بقوة كبيرة، وتتمدد كالريح الساخنة عبر الأزقة المريضة. قبل أن تزحف حتى الأحياء الراقية والثكنات العسكرية والسجون. وعلى الرغم من حملات التنظيف والسوائل التي وزعت هنا وهناك للتقليل من انتشار الكوليرا، فقد حصدت هذه الريح كما يسميها الناس هنا، في الأيام الأولى الآلاف من الناس في الأحياء الشعبية التي تم تطويقها ومنع أغلبية سكانها من الدخول إلى عمق المدينة أو الاقتراب من الثكنات العسكرية أو زيارة السجون وتُركوا يموتون جوعا وعطشا قبل أن يموتوا مرضا حتى شبع المرض منهم.

حاول حاكم الجزائر العام الجديد كلوزيل أن يقي جنوده من هذا الوباء الخبيث. كان خائفا من أن يمنعه المرض من السير قدما نحو تحقيق الهدف الذي عين من أجله. تكسير قوة الأمير في مهدها. أكثر من شهرين استغلهما لتنظيم قواته وشحن السفن باتجاه وهران بأكثر من عشرة آلاف رجل مدججين بكل الأسلحة الممكنة والعربات والآليات الحربية والبنادق الحديثة والسيوف التي لم تشترك في أية حرب.

في أيام الخريف الأولى، عندما انطفأت ريح الكوليرا، كانت القوات قد حلت بمدينة وهران يقودها كلوزيل بصحبة ولي العهد الدوق دورليان، تحت رقابة طبية صارمة إذ تم إرجاع كل من بدت على وجهه علامات المرض. في رأس الجنرال كلوزيل شيء واحد ووحيد: تخطى وادي الهبرة ومحو عاصمة الأمير، معسكر بشكل نهائي.



48 jacquinot
49 clausel
50 Thiers

-٤-

نزل الليل مبكرا على سهل اغريس.
دخل آخر رجل إلى المسجد قبل أن تُسدّ أبوابه ولم يبق في العراء إلا الحراس الثلاثة، ملفوفين في برانسهم الخشنة، وعلى ظهورهم بنادقهم الطويلة.
الثلوج التي سقطت كثيرا على سهول بايلك وهران زادت كثافة هذه المرة. الآليات التي جلبتها السفن التي رست بالعاصمة أو وهران عقدت من مهمة الحرب. صارت قادرة على تخطي كل العقبات الطبيعية التي تعيق عادة الخيول والوسائل التقليدية.
كانت الفيالق الفرنسية في سفح الجبل، تبدو من بعيد منتظمة وهي تسير وفق خطة مرسومة بدقة وهي تتخطى الجسر الصغير لوادي الهبرة. لقد صار مؤكدا أن اتجاهها ليس مستغانم مثلما خمن المراقبون في البداية ولكن معسكر. كل العيون والحراس الذين تسللوا عبر مصبات الهبرة وعلى ضفافها أو داخل غابة الكروش القريبة من الوادي، أكدوا للأمير أو لقادتهم على أن اتجاه القوات الفرنسية صار الآن في عداد اليقين. معسكر لحرقها وتدميرها.
على الرغم من شدة البرد، فكثافة الحاضرين وضيق المسجد وحرارة الهمهمات أعطوا نوعا من الحرارة للأجسام التي بدأ الكثير منها يتخلص من برنس الصوف الخشن.
الأمير لم يتكلم طوال اجتماعه بقادة قبائل بني هاشم والقبائل الأخرى. صمته المتوالي حير الجميع. ليس من عادته، وإذا حدث أن فعل فذاك يعني أن شيئا خطيرا حدث أو هو بصدد الحدوث. الذين يعرفونه جيدا يدركون أنه بصمته كان يهيئ الجميع لخبر استثنائي كل الحاضرين كانوا يشعرون به ولكن لا أحد كان يشتهي سماعه.
– ربما سأكون قاسيا على أنفسنا جميعا. المرض العضال يُستأصل ولا يُرقع. فالترقيع معناه الموت المؤكد. الذي لم أفهمه جيدا هو الانقلابات التي تحدث في الناس فجأة. الذي كان معك البارحة يصير اليوم بسهولة عدوا لك. الخليفة مازاري، البارح قاتل بجانبنا واليوم صار معهم. ما هي هذه الأقدار القاسية التي تغير الناس بهذه السهولة. من الصعب الثقة في هذه القبائل التي تلبس كل يوم عباءة جديدة. الدواخل مرتبكة، ثقة الناس بدأت تنقص ويحل محلها شيء آخر، المصلحة الصغيرة. السلطان يعمي الأبصار.
– إيمان مزاري في المقاومة ضعيف أصلا يا سيدي الكريم. منذ البداية لم نكن موافقين على تعيينه خليفة. هؤلاء الناس يحارِبون ولا يرقُّون إلى مناصب التسيير. الخداع متأصل فيهم وفي ذريتهم. لقد ناصروا دائما القوي. مع الواقف دوما. أنظر يا سيدي إلى أجداده وسترى الإجابة التي لا شك في صدقها ووضوحها.
– لا أدري إذا ما كان هذا هو الصواب. لا أحد يستطيع أن ينفي عنه حبه لهذه الأرض الطيبة التي حارب من أجلها وتعذب بقسوة. قد تكون أعمالنا غير صالحة، لم نتوصل إلى اليوم إلى إقناع الناس أننا في حاجة إلى دولة وإلى نسيان القبيلة والتفكير فيما هو أكبر إذا أردنا أن نبني شيئا نقاوم به الغزاة. حتى المتواطئون زاد عددهم لسبب لا أعلمه. أعدمنا من تورط علانية ضد إخوانه ولكن ماذا نفعل لخلفاء سلكوا هذا الطريق؟ كلما أعدمت رجلا شعرت بأني أفتح جرحا في هذا الجسد ولا شيء يغلقه. أليست أخطاؤنا وأنانياتنا الصغيرة هي التي رمتهم في أحضان الآخرين؟ نظامنا مهروس من الداخل.
– نحتاج إلى وقت أكثر، رد آخر. ولكن يا سيدي ماذا نفعل اليوم؟ سنواجه بعد أيام قليلة آلة حربية لا نملك حيالها إلا صدورنا وشجاعة رجالنا وخيولنا التي لا تخون ولكن ما عساها أن تفعل؟
– مشكلة الوقت هي التي جمعتني بكم اليوم في هذا المسجد الذي أديتم فيه البيعة قبل سنوات عديدة لأعلمكم برغبتي الصادقة في التنحي. أشعر أني لست مؤهلا لقيادة أمة، كل يوم يرتد قسمها الأكبر ضدي وكأني أملك خيرات الدنيا ولم أضعها بين أيديهم. لتختر القبائل خليفة لي وسأنصاع لأمركم وسأموت بينكم إن توجب الأمر كأي محارب صغير لا هدف له إلا نصرة الخير والحرية، وإلا، أخبروا الحاج الجيلالي، مسير شؤوني الإدارية بأني أرغب في الذهاب إلى المغرب أنا وعائلتي. لم أعد صالحا لقيادة هذا السيل من البشر وعلى فهم نوازعه وشهواته. إنه يتحين الوقت الذي يعود فيه إلى الغزو والغنائم. شعب لا يقف إلا مع الواقف، وعندما ينكسر يتخلى عنه بسخاء كبير ويذهب باتجاه المنتصر كأنه لا توجد لديه أية قضية. أنا على حافة زمن لم أعد أفهمه جيدا. فقد كبرتُ على مبادئ لا شيء يقف أمامها إلا الموت وبدأت أشعر أن عالما آخر بدأ يظهر، لم يعد بمقدوري استيعابه، فأتوا بمن يستطيع فهمه.
كان هذا الخبر كالصاعقة. فهم الناس لماذا ظل الأمير مدة من الزمن صامتا. فهو لا يركن إلى هذه الحالة إلا عندما يكون الكلام قاصما للظهر.
فجأة ارتسمت صفرة كبيرة على الوجوه وارتبكت الألسن وكأنها اتفقت سلفا على الكلمة التي ستقولها. ترددت أصداء الأصوات في المسجد وخارجه دفعة واحدة:
– لن نختار غيرك، مثلما بدأنا معك سننتهي بجانبك، وإذا توجب أن نبايعك مرة أخرى سنفعل ولا أحد يمنعنا من فعل ذلك.
لكن مصطفى ابن التهامي تدخل بحكمة:
– دينيا لا يحق لقائد أن يتخلى عن واجباته وقت الشدة يا أمير المؤمنين.
– الله وحده يعلم ما في السرائر والقلوب يا السي مصطفى وأنت سيد العارفين. الأيام القادمة ستكون قاسية ولا أريد من القبائل أن تلعنني في حلها وترحالها.
– ولكنك سمعت بصوت واحد قادة القبائل أنهم لن يقبلوا بغيرك. نحن مستعدون لفعل أي شيء. نحن لم نقصر في معركة أو في الاستجابة لندائك؟ هل هناك شيء أثمن من ترك بيوتنا وفراشنا، فإذا كان ولا بد، أمرنا لله، سنتبعك.
– ما ينتظرنا قاس جدا. من كان إيمانه ضعيف لن يذهب بعيدا. لقد انتصر سادة الحرب وعُزل ناس السلم في الجيش الفرنسي. ولا حل، إما قبول المهانة والموت وإما المقاومة. قد لا ننتصر في حروبنا القادمة ولكن على الأقل نكون قد أدينا ما أمرنا به ربنا والناس الذين وثقوا فينا.
التفت الخليفة مصطفى بن التهامي صوب الحاضرين فصرخوا بصوت واحد:
– نحن معك حتى الموت يا أمير المؤمنين، نحن معك...
– فإذا كنتم صادقين فاستعدوا للحرب. هذه المرة ستكون أكثر ضراوة من كل سابقاتها. هدف كلوزيل الذي بدأ زحفه نحو معسكر هو الاستيلاء على كل المدن المهمة وقص أجنحتنا. ولهذا علينا أن نفرغ المدينة من كل شيء ونحرق كل المصانع ونُهرِّب كل ما لا نستطيع نقله ويستعمل ضدنا. آلاتهم جبارة ولكن إرادتنا في الدفاع عن كرامتنا وأرضنا صلبة إن شاء الله.
– سمعنا أن بعض التجار من اليهود وعرب الأندلس يرفضون ترك حوانيتهم ودكاكينهم ويقولون أنهم تعبوا من الترحال والتنقل وأنهم يفضلون الموت في أرضهم على تركها.
– لا تجبروا أحدا. الهجرة واجب عند الضرورة وليست فرضا على الكل ومن رفضها له الحق في ذلك. بينوا لهم مخاطر البقاء وليتحمل كل واحد مسؤوليته أمام نفسه وأمام الله، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها.
منذ الساعات الأولى من الفجر الموالي، انقسم الناس إلى وحدات للتنظيم وكلف كل خليفة بالإشراف على إخلاء حي من الأحياء في أحسن الظروف وبدون نهب أو تخويف زائد. بينما كلف آخرون بالاتصال بالتجار لإقناعهم بتهريب سلعهم ووضعها في خدمة الهجرة. سقوط الثلوج والبرد والرياح لم يسهلوا مطلقا من مهمة الخروج. بعد ساعات من إعلان الهجرة في الأسواق ودخول خلفاء الأمير إلى المدينة، بدأ الناس يهيؤون دوابهم للمغادرة. كانت معسكر والقرى المجاورة كأنها تتعرض لزلزال شتت الناس في كل اتجاه. من بعيد تبدو المدينة كسوق لا نهاية لها، يختلط فيها كل شيء، الرجال والنساء والأطفال والدواب، الحمير والبغال والجمال والأبقار والماعز التي تستعمل عادة لحليبها والأغنام. الأخبار التي كانت تتوافد على الأمير كلها تؤكد أن اتجاه كلوزيل نحو مستغانم لم يكن إلا مصيدة لربح الوقت، فكل قواته تتجه الآن نحو معسكر ولا تتوقف إلا لترتيب شؤونها والتزود بالماء والراحة قليلا ثم تواصل زحفها باتجاه واحد. فرضية مستغانم حسمت نهائيا. كان الأمير يعرف جيدا أن الضربات القوية التي تمحو الهزيمة عليها أن تمس قلب الشيء، والعاصمة هي المكان الأفضل لذلك.
بدأ رتل الخروج ينتظم. فبعد فيلق الخيالة الذي يحرس المقدمة، خرجت عائلة الأمير، المربية والأم والزوجات والأبناء ثم عائلة بني هاشم من القواد والنساء ثم الدوائر الأخرى في شكل دوائر وكأنها مجرات لمن يراها من أعالي الجبل الذي تنام المدينة الممتدة في فوضى عند أقدامه.
عندما بدأت الشمس تنحدر من وراء المرتفعات، كانت البومة قد احتلت المدينة الخالية وبدأت تنعق في ما تبقى من خراب المدينة. كانت ألسنة النار تشاهد من بعيد وهي تأكل نوادر التبن ومطامير القمح والبيوتات الخشبية والأسواق حيث تجمعت بضائع كثيرة صعب نقلها ومداخل المدينة وبعض محلات اليهود باستثناء حوانيت الذين رفضوا الخروج أملا بعدم مجيء القوات الفرنسية. لكن الكثير ممن شموا رائحة البارود جراء القذائف المدفعية الأولى وهي تنزل بالقرب من المدينة وتسد أبوابها جراء الحفر الغميقة التي خلفتها، جمعوا بسرعة ما يمكن تجميعه وغادروا المكان مقتفين طريق الأمير على الجمال أو على الحمير وفي أحيان كثيرة على أرجلهم.
كان رتل المُهَجرين كبيرا ويزداد اتساعا كلما اقترب من خيام القبائل الموالية للأمير.
عندما وقف قليلا على الهضبة وقبل أن يبدأ الأمير عملية الانحدار باتجاه عمق الفلجة المؤدية إلى الجبل الذي يغطي كل شيء، التفت صوب معسكر للمرة الأخيرة، كانت ألسنة النار تتصاعد عاليا محدثة دويا وانفجارات مهولة بعد أن زحفت لمخازن البارود وأضاءت فضاءات المدينة التي كانت ترزح تحت ظلمة شتوية كبيرة.
أنين الرياح التي لم تتوقف منذ البارح، يسمع من بعيد وهو يخترق الأشجار والنباتات المتوحشة الكثيفة التي كانت تميل حتى تمسح الأرض برؤوسها ثم تقوم لتنحني من جديد. حتى رتل الحيوانات التي كانت تقطع الخلاء، كانت تتكاثف فيما بينها وتتقارب لتقي نفسها من شر البرودة القاسية. كلما هبت الرياح الباردة، أدخلت رؤوسها في صدور بعضها البعض قبل أن تُجبر على السير.
– مجهود سنوات من البناء يذهب مع الريح...
تمتم الأمير بدون أن يحرك حتى شفتيه. تنفس طويلا وبعمق بعد أن شعر بضيق كبير في تنفسه ثم لف البرنس على جسده النحيف عدة مرات وهمز حصانه بالركابين بنعومة لكي يتقدم قليلا إلى الأمام ويبدأ انحداره متبوعا ببقية الخلفاء وقادة القبائل.

–٥–

- Mon général, vous le saviez très bien, l'hivers est rude et décembre est insupportable dans ce pays.

- Il faut qu'on arrive à temps, le froid est difficile imême pour les armées les mieux adaptées à ce terri ble climat.

رد الجنرال كلوزيل على القبطان شونقارنييه[51] وهو يلف نفسه في غطاء ثقيل ويحاول جاهدا أن يخرج رجله من المسلك الموحل الذي غرق فيه فجأة.

- Certains de nos éclaireurs disent que l'Emir a déjà quitté Mascara et si dirige vers les monts les plus proches.

- Il nous facilitera la tache. Mais je ne pense pas que les commerçants le suiveront. De toutes les façons, nous non plus, on a pas l'intention d'y rester longtemps. Notre but c'est de detruire le noyau d'une industrie d'armement.

رد شونقارنييه وكأنه لم يقتنع بكلام كلوزيل:

– تدمير مصانع البارود والأسلحة لا يكفيان يا سيدي، لأنهم في هذه الحالة سيعودون إلى المدينة مرة أخرى عندما نغادرها.

– ومن قال لك أننا سنترك لهم مدينة. أعتقد أن الأمير هذه المرة سيفهم الدرس جيدا. عندما يعود سيجد الرماد والأدخنة.

– هي الآن مجرد رماد على ما يبدو.

– سنرى ذلك.

بعد أن قطعت آخر فيالق المشاة متبوعة بفيلق أخير من الخيالة، الوادي والمعابر الضيقة، لم تعد مدينة معسكر إلا على بعد كيلومترات قليلة. كانت الرياح الباردة تهب بشدة مصحوبة بسقوط ثلوج خفيفة. الليل كان في منتصفه تماما. فصل الشتاء يزيد من سواده وتفحمه.

أعطي الأمر للمشاة بتطويق المدينة قبل دخولها.

- On sait jamais, ces arabes sont pire que les chacals. sLaisser agir les zouaves d'abord, se sont des connais seurs de ces regions accidentées. Faites les suivres par un bataillon de fantassins.

قال شونقارنييه وهو ينبه ضباطه الذين توزعوا عبر أسوار المدينة التي كانت كل أبوابها إما محروقة أو بكل بساطة مفتوحة ومشرعة في بعض مداخل المدينة.

عندما اقتحمت أولى طلائع كلوزيل المدينة الخالية من السكان يتقدمها الزواف بسيوفهم وبنادقهم الطويلة، كانت معسكر قد أخليت عن آخرها حتى من قططها وكلابها التي اعتادت أن تملأ شوارعها في أوقات القيلولة صيفا أو الزوايا والأماكن الخالية شتاء. احتلت الفيالق الأولى البيوتات التي بقيت واقفة أو بها بعض الأغطية لتفادي قسوة البرد والأمطار والثلوج التي كانت تخترق العظام كالإبر. لاحظ الجنرال كلوزل وضباطه الحالة التي كانت توجد عليها المدينة فحاولوا أن يرتبوا أمورهم في انتظار الصباح الذي لم تبق له إلا بعض الساعات.

في الفجر الأول عندما استيقظ القبطان شونقارنييه بعد إغفاءة خفيفة، وبدأ يعبر الشوارع الخالية التي كستها أغلفة بيضاء من المطر، اكتشف فجأة أمامه مدينة منكسرة عن آخرها. أهم ما بقي فيها واقفا، مسجدها الموريسكي الذي قضت فيه إحدى كتائبه ليلتها الأولى في المدينة الخالية، والبيوتات الأندلسية القديمة التي نجت من النار إذ بقيت بزرابيها ولم يتجرأ أحد على نهبها أو إخلائها من أغطيتها. واكتشف ما دمرته فلول الزواف الذين كانوا أول من دخل المدينة من ناحية المقبرة، فكسرت كل المنحوتات الرخامية ذات الأحجام المتنوعة الكثيرة التي على الشواهد أو على القبور. لكن الذي ظل يشغل شونقارنييه هو الأسوار الخشنة التي ظلت واقفة وتحمي المدينة من الهجمات الممكنة. طلب من عساكره أن تُوجه صوبها المدافع التي جرها من ورائه في زحفه على المدينة ثم ركز ضرباته الأولى على مواطن قوتها لتنهار نهائيا في جهاتها الأكثر صلابة والتي تنهض بها أربع قلاع عالية للدفاع عن المدينة. لاحظ أن الأمير أخذ ما استطاع حمله على الجمال من مصانع الأسلحة وما تركه وراءه أحرقه بحيث أنه لم يعد صالحا. كانت المصانع في بداية عطائها وعلى الرغم من كونها لم تكن تنتج إلا بارودا أخضر، يشتعل بصعوبة كانت النتيجة مهمة بالنسبة للأمير لأن عمليات تحسين البارود كانت قد بدأت بمساعدة الخبراء الإيطاليين والألمان الذين كانوا قد وضعوا أنفسهم في خدمة المصانع الأميرية.

عندما فوجئ شونقارنييه بآخر الكلاب الضالة يخرج من تحت الآلات المحروقة بصعوبة إذ لم يكن قادرا على الهرب من كثرة الجوع، لم يتساءل كثيرا، أخرج مسدسه وأطلق عليه النار بكل برودة دم. عندما رآهم يدخلون في البداية، لم يتحرك الكلب من مكانه. فقد بقي ثابتا كالحجرة وكأن الأمر لم يكن يعنيه لا من قريب ولا من بعيد. ظل يتأمل شونقارنييه بعينين مدورتين فارغتين من أي قلق. حتى عندما اخترقته الرصاصتان، لوى رأسه وتدحرج بهدوء بدون أن يعوي أو يردح قليلا.

– الكلاب الضالة تنقل الأمراض. التخلص منها ضرورة.

قال شونقارنييه وهو يعيد مسدسه إلى غمده.

ثم أمر بأن توقد النار في البيوتات الأندلسية التي ظلت واقفة والمسجد القديم ودار الباي التي بقيت على حالها ولم يأخذ منها الأمير أي شيء والأسواق الكبيرة التي بقيت واقفة وانسحب بعيدا يتأملها مع مجموعة من مساعديه. ثم نزل باتجاه سوق الذهب. لم يجد إلا عددا ضئيلا من العائلات اليهودية وبعض مسلمين من أصل أندلسي. أمر بالتوغل داخل البيوتات الواطئة والاستيلاء على الذهب. حاول مردوخ الذي كسا كل عرائس معسكر وضواحيها أيام عرسهم أن يقاوم ولكنه جرح في يده، فنزعت منه المدراة التي كان يحاول بها إعاقة الفرقة على الدخول إلى بيته تحت صرخات النساء والأطفال. بينما كتف حمو الذي حاول تهريب نسائه ونساء العائلات اليهودية من الباب الخلفية. أخرج الجميع من البيت باستثناء السيدة العجوز التي رفضت الخروج وظلت تشتم بأعلى صوتها الذين أزعجوها في خلوتها ولم تتوقف أبدا حتى عندما بدأت النيران تأكل البيوتات التجارية المبنية ضمن خط مستقيم. انقلبت شتائمها إلى صرخات ثم إلى شيء يشبه العواء ثم صمتت تحت صوت النيران التي أكلت كل شيء. بينما أُخِذ مردوخ وحمو وبقية الرجال باتجاه المدخل الغربي للمدينة، حيث نصبت مشانق عديدة. أياديهم مكبلة وعيونهم مغمضة. تمتم حمو وهو يشم رائحة الموت:

– سنقتل يا مردوخ. ألا تحس بذلك؟

– وإذا أحسست ماذا بإمكاني أن أفعل؟

– لو استمعت إلي يا خويا؟ رأسك خشن كالحجر الأصم. ما تسمع غير لروحك. ألم أقل لك يا مردوخ؟ كان يجب أن نذهب مع أولادنا وراء الأمير.

– عمرك سبعون وعمري أكثر قليلا، ماذا بقي لنا، لا شيء. الأمير لن يفرط في الأولاد. أما أنا فقد تعبت من التنقل. في كل مرة نستقر فيها، يأتي من يخرجنا من أرضنا. أجدادي وأجدادك جاؤوا إلى هذه الأرض هربا من محاكم التفتيش المقدس، فأين نذهب؟ كل الدروب صارت مغلقة وأرض الله ضاقت حتى صارت كفردة حذاء. يبدو أن نهايتنا هي هذه ولنقبل بهذا المصير. الموت في الجماعة لا يخيف.

وُضِعت الحبال في أعناقهم مثل الخرفان. لم يقاوموا. مدوا أعناقهم ورؤوسهم التي ابيضت بفعل الشيب والثلوج التي عادت إلى السقوط بقوة، باستسلام كبير وعيون منطفئة، ركزت قليلا نحو الهضبة العالية التي سلكها الأمير وأبناؤهم الذين ودعوهم بعيونهم قبل أن تنكسر على ظلام حاد وصرخات كانت تأتي من بعيد.

في اليوم الموالي من شهر البرد والريح والثلج، غادرت الفيالق العسكرية المدينة بنفس النظام الذي دخلت به بعد أن جعلت المدينة مرتعا للكواسر والغربان والذئاب متوجهة نحو المسالك المؤدية إلى وهران عن طريق مستغانم هذه المرة.

– دخلنا المدينة وخرجنا منها بدون أن نخسر رجلا واحدا. قال الجنرال كلوزيل، هناك حروب سهلة وأخرى معقدة ولكن هذه تبدو بدون طعم. صامطة.

– وماذا كان يجب أن نفعل يا سيدي؟

– أن نجد على الأقل من يعطينا مبرر هذه الحرب.

– والكلاب واليهود والعرب الذين شنقناهم؟

– لا أدري ولكني لا أشعر بطعم إلا بطعم الرماد الذي خلفه الأمير وراءه. لا أكثر.

كانت الأرجل الكثيرة تغوص في عمق الثلوج بسهولة وتخرج منها بعد مجهود كبير. حتى الخيل وجدت صعوبة كبيرة في إيجاد المسالك الأقل تعبا لها، الكثير منها سقط على ركبتيه ولم يقف أبدا، فترك هناك في مكانه بعد أن أطلقت عليه رصاصة الرحمة كما أمر شونقارنييه، عادة تعلمها من أحد القادة الذين تخرج عليهم.

كان سهل اغريس كعادته في مثل هذا الفصل قد لبس بساطا ناصعا من الثلوج البيضاء الصافية. بساط خادع إذ يتجاوز في الكثير من الأماكن المتر ويُسَطِّح كل العلامات ويضيع الطرقات والمسالك. كلما هبت رياح خفيفة، سحبت وراءها نثار الثلج الذي لا يتوقف أبدا فيغطي سماء المدينة ببياض خفيف يسد كل الطرقات ويعميها. مما صعب كثيرا الحركة. الآلات الجديدة التي جلبتها السفن الحربية الفرنسية وجرها وراءه كلوزيل، عقدت من حركة المشاة والمدفعية، فقد وجدت هذه الأخيرة صعوبة كبيرة في إيجاد المسلك المؤدي إلى الطريق الغربي.

كانت أعواد المشانق التي نصبت وعلقت عليها أجساد العرب الباقين واليهود تبدو من بعيد وهي تتدلى كالعناقيد الجافة، تحيط بها الكلاب الصفراء التي خرجت فجأة من مخابئها على الرغم من البرد والجوع والمطر، تنظر لها باشتهاء بينما الكواسر تقتحم الأدخنة العالية، تخترقها بعنف لتحوم دفعات دفعات على رؤوس الأجساد المتآكلة الأطراف والتي بدأت تتصلب وتتجمد من قوة البرد حتى أن النقرات الأولى لم تأت بأي شيء إذ أنها ارتفعت عاليا بمناقير فارغة، فاستعدت لمعاودة الكرة أمام كلاب زاد عددها وذئاب تنظر من وراء الأشجار والحيطان المهدمة إلى المشهد الذي بدأ جمهوره يزداد عددا وكثافة وتنوعا.

51 Le capitaine Changarnier

